إسهامات العلماء المسلمين في مجال البحث العلمي

"دراسة تحليلية نقدية"

أ.د/ سليمان بن صالح القرعاوي

أستاذ الدراسات الإسلامية

كلية الآداب – جامعة الملك فيصل

الملخص

لا ينبغي أن ينظر إلى البحث العلمي على أنه ترف علمي، أو ذهني، أو بلا هدف مقصود، لأن في ذلك تهميشًا له، وللدور الذي يلعبه في تقدم الأمم والشعوب، وفي الحفاظ على بنائها أمام الأمم الأخرى، فالبحث العلمي لابد أن يكون مدفوعًا بفكرة تحركه، من خلال الالتزام بقضية؛ لأنه بدون قضية، أو فكرة محركة لا يمكن للباحث أن ينهض، كما لا يمكن للبحث العلمي أن يستوعب المعارف، ويتجاوزها، ويتفوق عليها، وكلما كان الدافع كبيرًا؛ كان الإعجاز أكبر، فقد يكون الدافع مالًا، أو جاهًا، أو منصبًا، وقد يكون رضا الله – سبحانه وتعالى – ، وهو الدافع الأكبر، والقضية الأهم في حياة المسلم، والأمة الإسلامية.

إضافة إلى أن البحث العلمي في مجال العلوم الشرعية يهدف إلى إيجاد حلول لمشكلات المجتمع المتجددة، بمعنى معرفة الحكم الشرعي فيها، أهي حلال؟ أم حرام؟ أيأخذها المجتمع؟ أم يرفضها؟، كما يهدف إلى التأصيل للفقه من خلال علم أصول الفقه، ومناقشة قضايا إسلامية في مجالات السيرة، والدفاع عن العقيدة، وتفسير القرآن الكريم، وفق منهجية التفسير المعروفة عند المسلمين.

وقد أشارت نتائج بعض الدراسات السابقة إلى جهود العلماء المسلمين في طلب العلم. وعلى الرغم من هذا، فإن هذا المجال ما زال في حاجة إلى مزيد من الدراسات للكشف عن إسهامات العلماء المسلمين في مجال البحوث العلمية عامة، والعلوم الشرعية خاصة. وعليه، تكمن مشكلة الدراسة الحالية في التعرف على إسهامات العلماء المسلمين في مجال البحث العلمي.

ومن ثم، تتحدد الدراسة بالتعرف على كل من أهداف البحث العلمي، ومستوياته، وأخلاقياته عند العلماء المسلمين. إلى جانب الكشف عن جهود العلماء المسلمين في طلب العلم. وقد تم استخدام المنهج الوصفي التحليلي للتكامل في منهجية الدراسة، بين الوصف والتحليل والاستنباط، بغرض الإجابة عن أسئلة الدراسة التالية:

- ما هي أهداف البحث العلمي عند العلماء المسلمين؟
- ما هي مستويات البحث العلمي عند العلماء المسلمين؟
- ما أخلاقيات البحث العلمي عند العلماء المسلمين؟
- ما هي المنهجية البحثية عند العلماء المسلمين؟
- ما هي جهود العلماء المسلمين في طلب العلم؟

وبعد عرض المصطلحات الخاصة بالدراسة، وعلى وجه الخصوص مفهوم العلم، والبحث العلمي عند العلماء المسلمين، توصلت الدراسة إلى النتائج التالية:

(١) أن الإسلام دين علم، وأن الله قد ابتدأ وحيه إلى نبيه المصطفى ﷺ بأمر القراءة التي اشترط فيها أن تكون باسمه - تعالى- ثم وصف نفسه — تعالى- بأن تعليمه بالقلم، وتعليمه ما لم يعلمه الإنسان.

(٢) أن الإسلام دين علم، ومعرفة، وحضارة. قلما نجد دينًا حض أمته على العلم، والتعلم، أوضح من الدين الإسلامي، حيث اقترن مكانة العلم، والمعرفة بالإيمان، في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.[المجادلة: ١١]. ويشير إلى هذا المعنى ما يروى عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله: "من خرج في طلب العلم كان في سبيل الله حتى يرجع". (أخرجه الترمذي).

(٣) تُعَدُّ حياة الإنسان كلها قائمة على السعي الدؤوب، في جمع العلم والمعرفة. فمنذ أن خلق الله آدم — عليه السلام -، وأُنزل إلى الأرض، والإنسان يعمل عقله وفكره، ويبحث عن أفضل السبل؛ لممارسة الحياة فوق سطح الأرض، وتحقيق وظيفة الاستخلاف، التي خلق الله الإنسان من أجلها.

(٤) أن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما يتحلون به من المذاهب والفضائل: تارة علمًا، وتعليمًا، وإلقاءً، وتارة: محاكاةً، وتلقينًا بالمباشرة، إلا أن حصول الملكات عن المباشرة،

والتلقين، أشد استحكامًا وأقوى رسوخًا، فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات، ورسوخها.

(٥) أن من أهم السمات النفسية التي ينبغي أن يتحلى بها من يشتغل بالعلم: الصبر، والتحمل، والإيثار، والزهد، والتعاون، والبر بأهل الفضل، وتقدير العلم والعلماء.

(٦) مثلما كان العلماء المسلمين صولة وجولة، في مجالات علمية شتي: الشرعية، والإنسانية، والطبيعية، وفي عصور كانوا فيها سادة العلم، كما هم سادة الموقف، كان لهم- أيضًا - شأن في منهجية البحث العلمي، وقد برز ذلك جليًّا من خلال ممارستهم الحقيقية لتلك المنهجية في أبحاثهم، وكتاباتهم، وشروحهم حول اكتشافاتهم العلمية.

(٧) أن هناك خطوات أو قواعد فرعية خاصة تميز البحث العلمي في مجال من المجالات دون آخر، أي أن هناك مناهج متعددة، وفقًا لتعدد وتجدد أصناف المعارف، ولكنها تشترك في خطوات وقواعد عامة.

(٨) تبنى العلماء المسلمين الطريقة العقلية، لمعرفة حقيقة الشيء الذي يبحث عنه، عن طريق نقل الحس بالواقع بواسطة الحواس إلى الدماغ، ووجود معلومات سابقة، يفسر بواسطتها الواقع، فيصدر الدماغ حكمه، وهذا الحكم هو الإدراك الفعلي، وهو المعرفة التي تتكون لدى الفرد. وتكون في بحث المواد المحسوسة المدركة بذاتها كالأشياء المحسوسة، والظواهر الطبيعية المحسوسة، أو في المدرك أثرها دون إدراك ذاتها؛ كمخلوقات الله الدالة على الخالق، وأثر الإلكترون الدال على الإلكترون، وتصلح هذه الطريقة - أيضًا - في بحث الأفكار: كالتشريع، والعقائد، وغيرها.

(٩) اهتم علماء المسلمين بالسيرة؛ لأنها تحوي أخبار الرسول ﷺ من أفعاله وأقواله وسكونه، وتلك كلها جمعاء تشريع كالقرآن، فالعناية بالسيرة وتتبعها أمر شرعي؛ فكان اهتماماتهم بذلك الجانب التاريخي اهتمامًا شرعيًّا، سواء أكان من حيث الهدف، أم من حيث المنهجية. وقد أدى اهتمامهم ذلك، إلى رفع الكثير من القواعد الدقيقة والصارمة، والتي

تُعَدُّ بحق من قواعد المنهج التاريخي الحديث، والتي أُعدَّتْ في حينها موازين ومعايير، تقبل على أساسها الرواية أو ترد.

(١٠) سار علماء المسلمين في كتابة التاريخ الإسلامي، كما ساروا في كتابة السيرة والحديث سواء بسواء. أي أن الطريقة التي أتبعت في تدوين التاريخ، هي نفسها التي أتبعت في تدوين الحديث، فكتب التاريخ التي عدت من المصادر، هي ما كتب بطريقة الرواية أو بطريق الملاحظة المباشرة، وتلك الكتب، مثل: "سيرة ابن هشام"، و"تاريخ الطبري" اعتمدت الملاحظة المباشرة، والتي من خلالها تم تحديد أحداث ووقائع وآراء، وإذا لم تكن كذلك بالنسبة للحديث والسيرة، نظرًا لانعدام الملاحظة المباشرة، إلا أنها جميعها كتبت بطريقة رواية الخبر عن شاهده، أو عن أشخاص سمعوا من شاهده، وتلك هي أصح طرق كتابة التاريخ، وهو ما يُعرف حديثًا بالمصادر الأولية، أو البيانات الأولية.

(١١) أن الكثير من الأفكار، والأصول المنهجية الحديثة، والعديد من أصناف المناهج البحثية المعروفة اليوم، قد عرفها علماء المسلمين، هذا إن لم يكونوا هم من أرسى أسسها في حينها، فكانت جزءًا من تراثهم العلمي.

(١٢) حرص علماء المسلمين على أخلاقيات البحث، مثل: الصدق، الأمانة العلمية، التوثيق، والسعي لإظهار الحق؛ بغية مرضاة الله.

(١٣) سار علماء المسلمين وفق منهجية بحثية منضبطة، وقد كانت جزءًا من علومهم وإنجازاتهم، قد ارتفعت إلى مستوى العلم الذي وصلوا إليه، وأوصلوه للآخرين.

(١٤) أن المنهجية العلمية لعلماء المسلمين إسلامية المصدر، إسلامية الهدف، وكانت نتاجًا طبيعيًّا، لرؤية الإسلام الخاصة للعلم وحثه على الإبداع والابتكار، في شتى المجالات العلمية دونما تمييز بين علم وآخر.

(١٥) إن علماء المسلمين قد فهموا معنى البحث العلمي، وأدركوا أهميته لحياتهم، كأمة تسعى لنشر الدين الإسلامي، وقد كانت لهم همة عالية في البحث، ومنهجية واضحة المعالم،

وأخلاقيات بحثية متجددة، مصدرها القرآن الكريم والسنة النبوية. وإلى جانب هذا، قد ميزوا بين العلوم الطبيعية ومنهجيتها البحثية، وبين العلوم الإنسانية ومنهجيتها، وعرفوا الطريقة العلمية، كما هي الآن، وعرفوا كيف تطبق هذه الطريقة، وفي أي المناهج البحثية، وأدركوا أنه يستحيل تطبيقها في ميادين معينة، فكانت لهم نظرة ثاقبة، توصلوا من خلالها إلى أقاصي الأرض، بدينهم وعلمهم.

كما انتهت الدراسة إلى التوصيات التالية:

(١) ينبغي أن تتضمن المناهج التعليمية في شتى المراحل الدراسية سيرة مستفيضة عن جهود العلماء المسلمين في مجال البحوث العلمية عامة، والشرعية خاصة.

(٢) يجب عند إعداد طلاب الدراسات العليا التركيز على أهمية المناهج البحثية، لأنها تعد بمثابة الأرضية العلمية السليمة، لإنتاج بحوث علمية ذات قيمة.

(٣) ينبغي تعليم الطلاب في المراحل التعليمية المختلفة أهمية طلب العلم والسعي إليه، والفوائد المترتبة عليه.

(٤) لابد من عقد ندوات علمية للتركيز على دور الرحلة في طلب العلم، والفوائد الناجمة من هذا.

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة الملك خالد

إسهامات العلماء المسلمين في مجال البحث العلمي

"دراسة تحليلية نقدية"

مقدمة إلى المؤتمر السعودي الأول للنشر العلمي

المنعقد في ٢٧ – ١٤٣٥/٣/٢٩هـ

الموافق ٢٨ – ٢٠١٤/١/٣٠م

مقدمة من

الأستاذ الدكتور: سليمان بن صالح القرعاوي

أستاذ الدراسات الإسلامية

كلية الآداب – جامعة الملك فيصل

مقدمة الدراسة:

تُعَدُّ قضية العلم من القضايا الرئيسة في تعاليم الإسلام وممارساته. وقد نزلت أولى آيات الوحي تأمر البشرية بالقراءة، والبحث عن العلم والحقيقة، حيث قال الله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١-٥]. ومن ثم، ينبغي على الإنسان أن يعتمد على العلم واليقين، ولا يقلد الآخرين. لذا ينبغي عليه أن يعتمد على البحث العلمي، الذي يقوم على طلب العلم والمعرفة، وتقصيها حتى الوصول إليها، استنادًا إلى مناهج محددة في تقصيه الحقائق المعرفة (عناية، ١٩٩٠: ١٥٣)، وهو نشاط علمي منظم، يسعى إلى الكشف عن الحقائق، مع معرفة الارتباط بينها، ثم استخلاص المبادئ العامة، والقوانين التفسيرية (عبد الحميد، ٢٠٠٠ : ٨). ومهما اختلفت الصيغ الواردة في تعريف وتحديد مفهوم البحث العلمي، فإنها تجمع على أن البحث العلمي:

- نشاط منظم يقوم على ملاحظة مقصودة.
- يهدف إلى إيجاد حل لمشكلة من مشكلات العصر القائمة، أو المتوقعة، أو التعرف على حقيقة علمية (طلب المعرفة).
- يقوم به باحث مختص في الجانب المعرفي والمنهجي.
- له خصائص، ومواصفات محددة.

ويعتبر البحث العلمي: عملية اختراع، واكتشاف، ثم تحقق وإثبات، من خلال إحداث إضافات جديدة في ميادين المعرفة المختلفة، أو تعديلات المعارف قائمة، بالتقصي المنظم القائم على التبحر والغوص في أعماق الحقيقة (عناية، ١٩٩٠: ٨٤؛ ورشوان، ١٩٨٥: ٣٥).

والبحث العلمي قديم قدم الإنسان، فقد مرت المجتمعات البشرية بمراحل زمنية، وحقب تاريخية تراوحت فيها كميات المعرفة المتحصلة للإنسان، وتعددت موضوعات البحث، ومنهجيات

الكشف عن الحقائق، وأشكال القوانين التي تتحكم في الظواهر الكونية. فالسنن الإلهية قد فرضت: أن باب البحث العلمي في طبيعة الخلق، أو في جزئياته لا يمكن أن يغلق؛ وذلك لأن حدود سنن الله في خلقه غير معلومة، فمهما عرف منها الإنسان، ومهما تعمقت تلك المعرفة، فلا يزال هناك المزيد، ليكتشف ويعرف؛ كي يستفاد منه، قال تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[الإسراء: ٨٥].

إضافة إلى هذا أشار الريس (١٩٩٢) أن للبحث العلمي مستويات متعددة على النحو التالي:

المستوى الأول: البحث في الموجودات، حيث يتم تصنيفها، بعد التعرف عليها، إلى مجموعات وفق أسس مشتركة، كتصنيف الحيوانات، والنباتات، والعناصر إلى رتب، وفصائل، وأنواع، وأجناس، ويدور البحث العلمي هنا حول وجود الاختلاف، والتباين بين كل منها، سواء أكان من ناحية الشكل، والجسم، والوظيفة، والعمر، وكيفية التكاثر، أم غيرها، فقد تم الكشف عن أن الحيوانات أكثر من مليون نوع، وتزيد النباتات عن ثلاثمائة ألف نوع، وساعد المجهر الإلكتروني في الكشف عن أنواع جديدة، فأصبحت هذه الأرقام مجرد إحصائيات تقريبية.

المستوى الثاني: البحث في المكونات، وهنا يتم البحث في مكونات الشيء الواحد من حيث الكم والكيف، من خلال التعمق في مكونات الشيء الواحد، ويؤدي البحث في المكونات إلى اكتشاف مكونات جديدة، لم تكن معروفة، كالبحث في مكونات الذرة، ثم في مكونات النواة، ثم مكونات البروتون، والنيوترون؛ للوصول إلى الكواركات، والتي يعتقد الآن، أنها وحدة البناء الأساسية للمادة.

المستوى الثالث: البحث في العلاقات، يقوم البحث العلمي، وفق هذا المستوى، بالكشف عن العلاقات الارتباطية والسببية، بين المتغيرات المعلومة، في ظواهر محسوسة، لصياغة علاقات رياضية ما أمكن، وقوانين علمية تساعد في التنبؤ والتحكم، فالاستفادة من تلك

القوانين في بناء تكنولوجيا جديدة، يستفيد منها الإنسان، كالبحث في العلاقة بين ارتفاع درجة الحرارة، وتمدد المعادن، والعلاقة بين الارتفاع عن سطح الأرض، وانخفاض الوزن، والعلاقة بين حجم الغاز، وضغطه، وغيرها الكثير.

وينتهي دور العالم الطبيعي، الباحث عن المعرفة العلمية، وقوانينها، وأنظمتها فقط، عند هذا الحد، حيث يقوم بنشر أبحاثه، واختراعاته؛ لتستفيد منها البشرية، فيكون الهم الأول والأخير للبحث العلمي، وللباحث، وفق هذا المستوى: هو إيجاد العلاقات، والقوانين، ثم محاولة السيطرة على الظواهر الطبيعية، والتحكم فيها، مثل: كيفية التنبؤ بالزلازل، والعواصف، وكيفية الاستفادة من ظواهر طبيعية: كالجاذبية، وقوة الطفو، والمغناطيسية، وغيرها.

ويمثل البحث العلمي بجميع مستوياته ركنًا أساسيًّا في حياة الأمم والشعوب، فهو عماد كل تخطيط، وعصب كل تنمية، حيث بواسطتها يتم وضع خطط التنمية، على أسس علمية متينة، كما يتم تفادي الأخطاء، وتوفير الأموال، وتقصير الوقت، وتحسين النوعية، كما يقود إلى تكنولوجيا متطورة، لا يستغني عنها في حالتي السلم والحرب على السواء.

وقد استطاع علماء العرب المسلمين، بعد الاطلاع على علوم السابقين في الحساب والجبر والهندسة وحساب المثلثات، أن انتقلوا إلى مرحلة التأليف والاكتشاف، ووضع أسس البحث التجريبي، باستخدام النماذج الرياضية، واتباع المنهج العلمي السليم، في استنباط القوانين والنظريات، وحتى اكتشاف فروع جديدة في الرياضيات وتطوير فروع أخرى إلى درجة جعلت مؤرخي الرياضيات يجمعون على أن علماء العرب والمسلمين في عصر النهضة الإسلامية هم أساتذة الرياضيين في عصر الحضارة الأوروبية الحديثة (شهاب، ٢٠٠٩).

وإلى جانب هذا، نجد أن هناك آيات قرآنية متعددة تناولت الإنسان والنبات والحيوان والطبيعة والأرض والشمس والنجوم وخلق الكون ومصير الإنسان وغيرها من موضوعات قد ساهمت في تحقيق النزعة العلمية عند المسلمين، لذا فقد طلبوا العلم في كل وقت، وكانت نتيجة ذلك التوجه مكانة رفيعة بين الشعوب، فقد تمكن العرب من الطب ونبغوا فيه فكان

لديهم مكانة مرموقة سواء أكان ذلك في طرقهم الطبية التي اعتمدوها أم في الموضوعات التي درسوها.

ومن ثم، نجد من خلال استقراء ما سبق أن العلم وفروعه المختلفة قد ازدهرت ازدهارًا واضحا في ظل الحضارة العربية الإسلامية التي كانت لها السبق والفضل في نمو الحضارة الأوروبية.

لذا ينبغي على شباب العلماء والباحثين المسلمين أن يطلعوا على تراث علماء الإسلام الأسبقين، حتى يكون هذا هديا ونبراسا لهم لبذل الجهد في مجال البحث العلمي في شتى فروع العلوم المختلفة حتى يعود مجد الحضارة العربية الإسلامية في مجال العلم والمعرفة.

مشكلة الدراسة:

قد اهتم علماء الإسلام بدراسة الحركة والزمان والمكان والجسم المتحرك، ووصفوا حركة الأجسام وأنواعها والقوة المسببة للحركة، والزمن الذي تستغرقه، وعقدوا الصلة بين الحركة والزمان، حتى إن دراستهم لهذه الموضوعات وغيرها؛ قادت بعض المتخصصين إلى القول بأسبقيتهم في فهم تأثير الجاذبية فهمًا علميًا صحيحًا، كما كتبوا في البصريات والكيمياء العضوية واللاعضوية، وتطرقوا إلى الموضوعات الجغرافية والفلسفية والفلك والمعادن والميكانيكا. وإلى جانب هذا، قد كان لهؤلاء العلماء المسلمين إنجازات واضحة في العلوم الشرعية.

إضافة إلى هذا، أشارت بعض الدراسات السابقة إلى جهود العلماء المسلمين في طلب العلم الذهني، ١٩٩٨)، (الخطيب البغدادي، ٢٠٠٤). وعلى الرغم من هذا، فإن هذا المجال مازال في حاجة إلى مزيد من الدراسات للكشف عن إسهامات العلماء المسلمين في مجال البحوث العلمية. وعليه، تكمن مشكلة الدراسة الحالية في التعرف على إسهامات علماء المسلمين في مجال البحث العلمي.

أسئلة الدراسة:

تحاول الدراسة الراهنة الإجابة عن الأسئلة التالية:

١- ما هي أهداف البحث العلمي عند العلماء المسلمين؟

٢-ما هي مستويات البحث العلمي عند العلماء المسلمين؟

٣-ما هي أخلاقيات البحث العلمي عند العلماء المسلمين؟

٤- ما هي المنهجية البحثية عند العلماء المسلمين؟

٥- ما هي جهود العلماء المسلمين في طلب العلم؟

أهداف الدراسة:

يمكن تحديد أهداف الدراسة في النقاط التالية:

١- التعرف على أهداف البحث العلمي عند العلماء المسلمين.

٢-الكشف عن مستويات البحث العلمي عند العلماء المسلمين.

٣- التعرف على أخلاقيات البحث العلمي عند العلماء المسلمين.

٤- الكشف عن المنهجية البحثية عند العلماء المسلمين.

٥-التعرف على جهود العلماء المسلمين في طلب العلم.

حدود الدراسة:

تتحدد الدراسة بالتعرف على كل من أهداف البحث العلمي ومستوياته وأخلاقياته ومنهجه عند العلماء المسلمين. إلى جانب الكشف عن جهود العلماء المسلمين في طلب العلم.

منهج الدراسة:

تم استخدام المنهج الوصفي التحليلي، للتكامل في منهجية الدراسة بين الوصف والتحليل، والاستنباط بغرض الإجابة عن أسئلة الدراسة.

مصطلحات الدراسة:

تتناول الدراسة الحالية مصطلح العلم، فقد صاغ العلماء المسلمون العديد من التعريفات المفهوم العلم منها: "أنه الاعتقاد الجازم المطابق للواقع عن دليل (الجرجاني، ١٩٨٨: ١٥٥).

أو هو إدراك الشيء بحقيقته عن يقين". (إبراهيم، ١٩٦٨: ٣٥٢). ويطلق العلم على إدراك المسائل، وعلى نفسها وعلى الملكة الحاصلة منها، والعلوم المدونة تطلق أيضا على هذه المعاني الثلاثة. أو هو ملكة يقدر بها على استعمال موضوعات ما نحو غرض من الأغراض. (التهانوي، ١٩٩٨: ٣٤٢).

ومن جانب آخر فرق الباحثون المسلمون بين العلم والمعرفة، وذكروا بداية أن العلم نور يلقيه الله في قلب من يحب، فالعلم لا يسبقه جهل في حين يسبق المعرفة جهل، وعليه يطلق على الله تعالى عالم، ولا يطلق عليه عارف، والعلم يقال للإدراك الكلي والمركب، بينما تقال المعرفة للإدراك الجزئي أو البسيط، ومن هنا يقال عرفت الله، دون علمته، وقد يطلقان ويراد منهما مطلق الإدراك الشامل للتصور والتصديق، وهذا الاستخدام هو المراد من العلم والمعرفة في تعريفات العلوم المدونة. (أنيس وزملاؤه ، ١٩٧٢: ٦٢٤).

والذي يعنينا مما تقدم هو العلم الشرعي والمراد به: علم ما أنزل الله على رسوله من البينات والهدى. وهذا العلم هو ما ورد فيه الثناء والمدح في الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة. قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ١١].

وقال النبي ﷺ : "من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين". وقال: "إن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما، وإنما يورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر"، ومن المعلوم أن الذي ورثة الأنبياء إنما هو علم الشريعة وليس غيره، إذ لم يورثوا للناس علم الصناعات، وما يتعلق بها من علوم. ومن هنا كانت العلوم عند أبي حامد الغزالي تنقسم إلى شرعية وغير شرعية، فالشرعية ما أستفيد من الأنبياء – صلوات الله عليهم وسلامه – ولا يرشد العقل إليه مثل الحساب، ولا التجربة مثل الطب، ولا السماع مثل اللغة. فالعلوم التي ليست شرعية تنقسم إلى: ما هو محمود، وإلى ما هو مذموم، وإلى ما هو مباح، فالمحمود ما ترتبط به مصالح أمور الدنيا: كالطب والحساب،

وأما المذموم فمثله: علم السحر، وأما المباح: فالعلم بالأشعار التي لا سخف فيها، وتواريخ الأخبار، وما يجري مجراه. (الغزالي، ٢٠٠٥: ٣٠- ٣١).

وبالنظر إلى هذه العلوم، نجد أن غاية العلوم الشرعية، هي توجيه حركة الإنسان عبر الزمان والمكان، وفق منهج الله تعالى، أما العلوم غير الشرعية، التي اختص بها الإنسان، فهي معارف مكتسبة، غايتها اكتشاف قوانين الكون وما فيه، وتدبير مصالح الدنيا، في إطار العلوم الشرعية، ووجهتها من غير تناقض معها.

وأكد القرآن الكريم اهتمامه بالعلم، بكثرة ورود كلمة العلم، نكرة ومعرفة فيه، إذ ذكرت (٨٠) ثمانين مرة، أما مشتقاتها: علم ويعلم ويعلمون وعلم ويعلم ويتعلم وعلم وعلام .. إلخ فذكرت مئات المرات. (عبد الباقي، ١٩٥٤: ٤٦٩-٤٨١). وإذا تأملنا الأحاديث النبوية الشريفة، وجدنا أن جميع كتب الحديث الشريف التي صنفها العلماء، بحسب الموضوعات والأبواب، قد خصصت بابًا للعلم ومسائله. ومن أمثلة المسائل التي تناولتها الأحاديث النبوية الشريفة في هذا الباب: حكم طلب العلم، والتحذير من كتمان العلم عمن يسأله، والإعلاء من شأن العلماء وطلاب العلم، وجعلهم في مقام المجاهدين في سبيل الله، وتفضيلهم على الشهداء، وما لهم من أجر، وثواب مستمر غير منقطع، فضل العلم وتعلمه وتعليمه، وآداب طالب العلم وتحصيله.

ومن الأحاديث النبوية الشريفة الجامعة لفضل العلم ومكانته، الحديث الذي رواه أبو هريرة – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: "ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً، سهل الله له به طريقاً إلى الجنة"[١].

---

[١] مسلم، ح٢٦٩٩، ورواه أبو أمامة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: "فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم"، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله وملائكته وأهل السماوات والأرض حتى النملة في جحرها وحتى الحوت ليصلون على معلمي الناس الخير"، الترمذي ح٢٦٨٦.

مبحث الدراسة: البحث العلمي عند العلماء المسلمين:

إن الأمة الإسلامية كغيرها من الأمم لها حضارة، ومدنية، وتاريخ، ويشهد القاصي والداني، والصديق والمحايد، والصادق من الأعداء، بأن علماء المسلمين في عصورهم الأولى أبدعوا في جميع مجالات الحياة، فعمروا الأرض بعلمهم، كما عمروها بدينهم، ولا يعقل أن يتحقق ذلك في حينه من خلال الصدفة أو العفوية، بل لابد أن يكون استنادًا إلى قواعد ثابتة وتنظيم عقلي منهجي، فما دام هناك إبداعًا علميًّا مشهودًا، تحقق على أيدي علماء المسلمين، فذلك يعني أن لهم منهجية علمية، في بحوثهم واكتشافاتهم، كانت جزءًا من إيداعهم ذلك، ولا يعقل أن نقول بأنهم أبدعوا، واكتشفوا دونما منهج علمي اعتمدوه في أبحاثهم، بمعنى: لا يتصور أن تقوم للعلم قائمة دون طريقة (منهج)، ويدور تقدم العلم، أو تخلفه، وجودًا وعدمًا مع هذا المنهج. وقد استخلص عبد العال (١٩٨٨) أصول البحث العلمي، وآدابه عند الإمام النووي على الوجه التالي:

- أهمية البحث العلمي للمتعلم.
- ألا يُقدم المتعلم على البحث والتصنيف؛ حتى يُؤهَّل لذلك.
- تحديد مشكلة البحث بدقة.
- التحقق والتثبت، واستخدام اللغة الصحيحة في كتابة البحث.

أهداف البحث العلمي:

يهدف الباحث المسلم، بالإضافة لما سبق من أهداف البحث العلمي، إلى هدف أسمى، وغاية أغلى، تتمثل في كل خطوة يخطوها في البحث العلمي، ألا وهي نيل رضوان الله تعالى، فالباحث المسلم يهدف دائمًا وأبدًا وفي جميع أعماله، عالمًا أو متعلمًا، لنيل رضوان الله، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. وهذه العبادة لابد أن تظهر في نية الباحث وهو يبحث عن دواء لداء، أو تطوير سلاح نووي أو بيولوجي، أو اختراع، أو ابتكار في مجال الاتصالات، أو طريقة جديدة؛ لتحلية مياه البحر، أو أسلوب

ناجح لحرب نفسية ترهب وترعب أعداء الله، قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: من الآية ٦٠]. فالباحث المسلم يتمثل الهدف الأسمى من البحث العلمي، وهو رضوان الله – سبحانه وتعالى – من خلال التزامه بشرع الله، في تفكيره، وبحثه، وسعيه المخلص، لخدمة أمته، والبشرية كلها جمعاء، فهو يبحث، ثم يخترع، ويكشف؛ لتكون كلمة الله هي العليا؛ ولتكون الخيرية لأمة الإسلام، فكلما تحققت هذه الخيرية بالدين، الذي حفظه رب العالمين، فلابد وأن تتحقق بالعلم، والتكنولوجيا أيضا؛ لتقوى على ملاقاة أعدائها. فالأمة الهزيلة بصناعتها، وزراعتها، وأسلحتها، لا تعتقد بأنها قادرة على حماية نفسها، فضلًا عن مهاجمة أعدائها، والمسؤولية تقع على عاتق أبنائها، فالمسلم أيًّا كان موقعه، على ثغرة من ثغر الإسلام، فلا يجوز أن يؤتي الإسلام من قبله. (أبو سمرة وآخرون ، ٢٠٠٥: ١١٤).

لقد هُزمت الأمة الإسلامية — اليوم – في المجال العلمي، كما هُزمت في المجال السياسي والعسكري، ونحن من سيحاسب على هذا؛ لأن الهدف من البحث العلمي لدى أبناء المسلمين لم يعد هدفًا لإعلاء كلمة الله، بل للشهرة، أو الترقية، أو المنصب، أو المكافأة، أو غير ذلك من متاع الدنيا!، إلا من رحم الله، ممن قال في نفسه: "إن بحثي هذا، وعملي هذا خالص لوجه الله تعالى"، فأهداف البحث العلمي الدنيوية قد تتحقق للباحث المسلم، إضافة إلى إعلاء دين الله، ولكن لا يجوز أن تطغى الأهداف الدنيوية على ما هو أسمى وأجل.

لذلك كله تبرز أهمية البحث العلمي في حياة الأمم، والشعوب، والدول، فالدول الحية الراغبة في الحياة، تدرك أهمية البحث العلمي، كما أدركه المسلمون الأوائل – مع الفارق في الغاية – عندما انطلقوا باحثين، ثم مكتشفين، مخترعين، مؤلفين، مترجمين، مجتهدين، ومفسرين، طالبين رضا الله بنية صادقة، أغدق عليهم الخلفاء العطاء، وهي وا لهم الحياة الكريمة؛ فجاد العلماء بأفضل ما عندهم، وجاءوا بعلم نفع أمتهم، والبشرية كلها جمعاء.

ونلاحظ أن الدول الصـــناعية، والمتقدمة تكنولوجيًّا أخذت المبادرة، في مجال البحث العلمي؛ فرصـدت له الإمكانيات المادية بلا حدود، لا بل أصـبحت قناعات المؤسـسـات، والشركات الخاصة، في تلك الدول بفوائد البحث العلمي وضرورته، أمرًا مسلمًا به، فأصبحت هي الأخرى جزءًا لا يتجزأ من دائرة البحث العلمي، تأخذ منه، وتعطيه.

وخلال فترة الثمانينيات من القرن العشـــرين، أنفقت الولايات المتحدة الأمريكية أكثر من (٤٠) بليون دولار على البحـث العلمي، في حين كـان الإنفـاق العربي (جميع الـدول العربية) لنفس الفترة (٢٠٠) مليون دولار فقط، وقد أظهرت نتائج الدراسات الإحصائية بأن الإنتاجية العلمية للوطن العربي، في مجال البحث العلمي متدنيَّةً جدًّا، حيث بلغت (١٠%) من المتوقع، وقد قُدِّرَت إنتاجية البـاحـث الواحـد في حـدود (٠,٢) من الأبحـاث للبـاحـث سـنوية، في حين وصـلت إلى (١,٥) من الأبحاث للباحث سـنويًّا في الدول المتقدمة، ويصـل معـدل الإنفـاق على البحـث والتطوير في المنطقـة العربيـة، إلى حوالي أربعـة دولارات للفرد الواحد، بينما يصـــل في اليابان إلى (١٩٥) دولارًا، والى (٢٣٠) دولارًا في ألمانيا. وتخصـــص الجامعات العربية (١%) من ميزانيتها للبحث العلمي، بينما تتجاوز هذه الحصـة في الولايات المتحدة (٤٠%) (غانم ، ٢٠٠٠؛ مرســـي، ١٩٨٤؛ ســـلمان، ١٩٩٣). وقد بلغ حجم الإنفاق على التعليم من الناتج القومي الإجمالي في الكيان الصـهيوني عام ١٩٩٩ (٦,٦%)، في حين بلغ في العام نفسـه (٥,٣ %) في الولايات المتحدة الأمريكية، وبلغت نسـبة العلماء والتقنيين في الكيان الصـهيوني (٧٦) لكل (١٠) آلاف شـخص في عام ٢٠٠٠، فقد أولى هذا الكيان اهتمامًا خاصًّـــا، منذ بداية إنشـــائه بالعلوم: الفيزيائية، الكيميائية، البيولوجية، والجيولوجية؛ لِوَعْيِهِ بأن التقدم في هذه العلوم على مسـتوى العالم؛ يتيح له الهيمنة والغلبة؛ لذا فقد أنشـأ معهد الجيولوجيا عام ١٩٤٩، ومعمل الفيزياء الوطني عام ١٩٥٠، والجامعة العبرية قبل ذلك، ومن ثم المعاهد التكنولوجية المختصـة، في مجال الدفاع، والبحوث الإسـتراتيجية في مجالات تكنولوجيا المعلومات، الإلكترونيات الدقيقة، وتكنولوجيا الفضـــاء، وتكنولوجيا

الصناعات العسكرية. فقد بلغت ميزانية معهد (وايزمان السنوية (١٫٢) مليار دولار، في حين بلغت ميزانيات كل الجامعات والمعاهد الأكاديمية العليا في كل الدول العربية (٨٠٠) مليون دولار فقط (عبد العال، ٢٠٠٣). أما مصر، (أكبر دولة عربية) فقد بلغ عدد معدل الإنفاق على البحث العلمي عام ١٩٩٢ (٠٫٣٧٪) من الناتج المحلي الإجمالي، بينما بلغ في عام ١٩٩٦ (٠٫٣٦ %) (القصبي، ٢٠٠٣). أما في ألمانيا فقد بلغ مجموع العاملين في مجال البحث العلمي والتطوير، بعد توحيدها مباشرة (٤٧٥) ألف شخص، وقد بلغت نفقات البحث والتطوير ضمن ميزانية عام ١٩٩٥ (٤٠) مليار دولار، أي ما يعادل (٢٫٣٪) من الناتج المحلي، ومن خلال هذه الأرقام لا نستغرب حصول العلماء الألمان، منذ الحرب العالمية الثانية، على عشر جوائز من مجموع (٤٥) جائزة نوبل للفيزياء، وعلى (١٦) جائزة من أصل (٤٠) جائزة نوبل للكيمياء، في حين حصلت في الفترة ما بين (١٩٨٨) وحتى (١٩٩٢) على عشر جوائز نوبل في اختصاصات مختلفة. (كابلر، ١٩٩٦: ٤٧٢).

هذا ما حدث في العالم الصناعي الغربي، في حين يغطُّ العالم الإسلامي في سبات عميق، لا يحرك ساكنًا في مجال البحث العلمي، والاختراع، والاكتشاف!، كأن الأمر لا يعنيه!، وهو صاحب الرسالة السماوية الخالدة، المرتبطة بالعلم ارتباطًا عضويًّا، وبداياتها كانت مع "اقرأ"، حيث تقهقرت الأمة الإسلامية في مجال العلم، بعد أن كانت السباقة وفي الطليعة!، وأصبحنا نردد أسماء العلماء من الغرب والشرق، وفي كل الميادين العلمية: نيوتن، أينشتاين، بويل، بيكون، أوزبل ... في حين لا نسمع لعلماء المسلمين ذكراً، إلا ما ندر.

مستويات البحث العلمي:

عرف المسلمون مستويات البحث العلمي (الثلاثة سالفة الذكر)، إضافة إلى مستوى آخر، وهو البحث فيما وراء العلاقات، وهذا المستوى هو الأرقى من بين مستويات البحث العلمي، حيث ينطلق العالم ويفكر في العلاقات الدقيقة، والقوانين المنضبطة، مرة تلو مرة، معيدًا البصر كرة بعد كرة، رابطًا هذه الظواهر، وتلك العلاقات بما حولها من حقائق أخرى؛

ليصل إلى نظم تلك العلاقات وواضعها، والمسيطر على قوانين الطبيعة، من أصغر ذرة حتى أكبر مجرة، لا يغفل ولا ينسى، ولا تأخذه سنة ولا نوم، المسيطر على كل ذلك بشكل محكم ومدرك، يدركه كل ذي لبٍّ سليم، من خلال هذا الكل المنظم. وهذا المستوى من البحث العلمي لا يصل إليه إلا من رغب في التفكر في خلق الله، واكتشاف بديع صنعه، منطلقًا من منهج رباني، ومستلهمًا العلم من كتاب الله، وسنة نبيه ﷺ، هكذا يبحث ويفكر العالم المسلم، أو الراغب في الهداية. قال بدري (١٩٩٢: ٩٩): "إن مشكلة العبور من الظواهر الكونية إلى خالقها، تمثل الفرق الأساسي بين العالم التجريبي المسلم وغير المسلم"، ورأى الخليفة (١٩٩٥ : ١١): أن كلمة: "علماء" في القرآن تشمل علماء الطبيعة؛ إذا فهموا دلالات علمهم، وربطوا بين عالم الشهادة، وعالم الغيب.

والعالم المسلم، ومن خلال بحثه عن المنظومة العلمية، يلتزم بأمرين اثنين (أبو سمرة وآخرون، ٢٠٠٥: ١١١):

الأول: لا يكتفي بمعرفة العلاقات: كأن يعرف عدد دقات القلب، وكيف يعمل، وما علاقة علمه بعمل الرئتين، أو يعرف علاقة ضغط الغاز بحجمه، أو يكتشف ظاهرة طبيعية هنا، أو قانونًا علميًّا هناك، ولكنه يتمثل عظمة خالق في هذه الظواهر والقوانين، من خلال ما يكتشف من حقائق ودقائق، والعالم المسلم، والعالم الراغب في الهداية والإيمان، يتساءل دائمًا عما وراء العلاقات، والظواهر، ولا يكتفي بالمشاهدة، وتسجيل الملاحظة، بل يسأل عن السر الكامن وراء احتياج غرام من الماء إلى كم محدد لا يتعداه من السعرات الحرارية، لترتفع درجة حرارته درجة مئوية واحدة، كما يسأل: عن السبب الذي يجعل (الإلكترون) في المدار الأول في ذرة (الهيدروجين) لا ينتقل إلى المدار الثاني إلا إذا حصل على كم محدد من الطاقة، ويرفض الانتقال إلى المدار الثاني؛ إذا قل ذلك المقدار من الطاقة، ولو بجزء ضئيل عن الكم المحدد، والعالم الذي يرغب في الهداية يسأل: كيف يمكن لحشرات وطيور – وهي بهائم

عجماء – أن تبني بيوتًا، وأعشاشًا في سهول، وحقول، ثم تعود إليها بسهولة، ويسر في ليل بهيم؟

فالعالم المسلم يبحث وفق المستويات الأربع، فيسخر العلم لعمارة الأرض، لأجل الدنيا والآخرة، والعلم الإسلامي يسعى للتعرف إلى ملكوت السماوات والأرض؛ لمعرفة عظمة الله وقدرته الفائقة في الخلق والإبداع، ومعرفة قدرة الله، وصفاته، وأفعاله هي السبيل إلى معرفة الله التي تؤدي إلى التقوى، وإلى طاعة الله، والامتثال لأوامره؛ رغبةً ورهبةً، وهذا يلاحظ من خلال ممارسات سلوكية، وأخلاقية، تساعد في بناء المجتمع، وفق منظومة إسلامية خالصة.

الثاني: ينطلق في بحثه العلمي ما أمكن، من خلال إشارات، ودلالات علمية، قد تكون واردة في كتاب الله، وسنة نبيه، بشكل مباشر، أو غير مباشر، يتلمس منها المعلومة العلمية؛ لأنه يكون عندها قد انطلق من يقين؛ إذا كانت دلالة النص قطعية، وانطلق من الظن الأقوى؛ إذا كانت دلالة النص ظنية، ولا يجوز أن تحمل النصوص ما لا تحتمل، فقد أشار القرآن الكريم إلى العديد من الظواهر، والإشارات، والدلالات العلمية، مثل: عيش الجنين في بطن أمه في ظلمات ثلاث، وكروية الأرض، وإنزال الحديد، والحركة الدائمة للأجرام السماوية، وانشقاق القمر، والرياح لواقح، وعلاقة النسل بصلب الرجل، وأن دم الحيض أذى، وأن في الصيام صحة، وأن الضغط يقل مع الارتفاع عن سطح الأرض ... فهذه الإشارات العلمية (الدينية وغيرها) يمكن أن تكون منطلَقًا لعلماء المسلمين في البحث والاكتشاف؛ ليسبقوا الآخرين؛ ولتكون لهم الزيادة في الوصول إلى الحقيقة العلمية، لا أن يقعدوا عن البحث العلمي، حتى تُكتشف سنن الكون من غيرهم، ثم يقولوا: لنا السبق في هذه، إنها في قرآننا قبل أن تكتشفوها!

أخلاقيات البحث العلمي

إن المقصود بأخلاقيات البحث العلمي، هي ضوابطه التي فرضها الدين، أو الأعراف، أو القيم، أو المعاهدات، بمعنى آخر: يمكن أن ينظر إلى ماهية أخلاق البحث العلمي، من خلال الإجابة عن السؤال: هل الباحث حر فيما يبحث فيه؟ وهل هو حرٌّ أيضًا في الكيفية (المنهجية) التي يبحث بموجبها؟

والأصل في ذلك أن الأمم في جميع العصور، تبحث عن العلم النافع، الذي يفيدها في تسخير ما في الكون؛ لإعمار الأرض بالنماء والازدهار، والملاحظ أن هناك قيود تفرض دومًا على البحث العلمي ومنهجيته؛ وفقا لفلسفة تلك الأمم، وثقافتها، حيث لم يكن البحث العلمي، ولم تكن منهجيته متحررة من كل قيد في كل العصور. فأحيانًا سيطرت العادات والتقاليد على أفكار البحث العلمي، أو ما يحاول العلماء البحث فيه، كما سيطرت الكنيسة فترة من الزمن على مجريات البحث العلمي، ورفضت أية فكرة علمية تخالف ما كانت تتبنى في ذلك الوقت، حيث اعتبرت ذلك خروجًا على قيمها، وفي زمن آخر سيطر زعيم القبيلة على المعارف والعلوم؛ فوضع قيودًا على ما يجب أن يقال، وما لا يجب، وكان مصطلح (العيب) يطلق على المحظور منها، وكان للحكام النصيب الأوفر في فرض قيودهم على الأفكار والحقائق العلمية؛ فمنعت جملة من المعارف، والقضايا العلمية؛ بحجة مخالفتها للقوانين المعمول بها في ذلك القطر أو ذاك.

فلكل عصر، ولكل أمة من الأمم أخلاقيات خاصة بها، حيث وضعت ضوابط لكل شيء بما فيها البحث العلمي، ثم حددت الجوانب التي يُسمح للعلماء أن يقولوا فيها، ويبحثوا، ويكتبوا ويؤلفوا، أو أن يتوقفوا، كما ومتى يغلق باب البحث فيها إلى أن يتغير الحال.

والإسلام ليس بمنأى من أفعال العباد، بما فيها أفعالهم في مجال البحث العلمي، فالبحث العلمي ما هو إلا أفعال العباد، يلزمها أحكام شرعية تضبطها، وتحدد ما هو مسموح، وما هو ممنوع، سواء أكانت في مجالات البحث أم في المنهجية البحثية المتبعة، وتلك الضوابط هي ما يسمى بأخلاقيات البحث العلمي عند المسلمين. وقد تكون بعض

تلك الأخلاقيات عامة تعارفت عليه أمم أخرى، وقد تكون خاصة بالأمة الإسلامية، ومن أهم تلك الأخلاقيات كما أشار إليها شرف الدين (١٩٩٧) ما يلي:

- **الأمانة العلمية:** فالأمانة خلق من أخلاق المسلم، باحثًا كان أم غير باحث، وهي لا تنحصر بممارسة البحث العلمي، ولكن المراد هنا بعض القضايا المتعلقة بالبحث العلمي مثل:

- **الصدق:** فلا يكتب الباحث إلا الصدق، ولا ينقل إلا الصدق، ولا يروى عن أحد إلا كان ما صدقًا، ولا يدوّن ولا يسجّل في بحثه إلا الصدق.

- **الدقة:** فالباحث المسلم لابد أن يتحرى الدقة في بحثه، وطريقة بحثه، وفي تعامله مع الأقوال والأرقام والحقائق، فالرقم (٠,٩٩) مثلا في البحث العلمي لا يساوي واحدًا صحيحًا، إلا بعد التقريب، ويذكر ذلك في البحث؛ حفاظًا على مفهوم الدقة في البحث العلمي.

- **الموضوعية:** فلا يتحيز لهوى ولا يميل لرأي علمي دون دليل، بل هي نتائج بحثه يطرحها كما هي، وهي التي تقرر ما قاله حول تلك النتائج.

- الإقبال على العلم النافع المفيد: فلا يجوز للباحث المسلم أن يشتغل بعلم ضار لا يفيد البشرية، ولا يتعامل مع مشكلات الناس، فإذا كان الهدف النهوض بالمجتمعات، لابد من البحث فيما هو مفيد، فالسحر، والشعوذة، والتنجيم من الصناعات التي لا تنفع الإنسانية، بل إن ضررها لا يخفى على عاقل. فالعلم، ونتائجه، وأبحاثه لابد أن توظف لإعمار الأرض والحياة الإنسانية، فلا يجوز البحث الاختراع ما هو ضار، كالمخدرات، والمسكرات، وأجهزة تزوير الوثائق، والعملات، وغيرها.

- ألا يبحث في قضايا تتعارض مع حقائق مستمدة من الوحي: فلا يجوز البحث في أمور حسمها الوحي بشكل قاطع، فلا طائل من جهد بحثي - مثلًا - في التداوي من الهرم، والشيخوخة، بغرض إبطالها؛ لقوله : "تداووا، فإن الله عز وجل لم يضع داء إلا وضع له دواء،

غير داء واحد: الهرم"[٢]. أو إجراء أبحاث بهدف إطالة عمر الإنسان، قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: من الآية ٣٤].

– **أن ينظر إلى البحث العلمي باعتباره عبادة**، واستجابة لما حث عليه الله تعالى، من التدبر في قاموس الوجود، والتفكر في خلق الكون، والتبصر في سفن الطبيعة، التي خلقها الله تعالى.

– ألا تسلك منهجية بحثية للوصول إلى المعرفة وفق مقولة: "الغاية تبرر الوسيلة"، فالغاية الشريفة لا يتوصل إليها بمنهجية أو طريقة غير شريفة، فلا يجوز للباحث أن يلجأ إلى طرق الحيلة، أو الخداع، أو السرقة، أو ما هو محظور شرعًا، للحصول على بيانات، هو في حاجة إليها لأبحاثه.

المنهجية البحثية عند علماء المسلمين:

من خلال استقراء واقع أعمال العلماء المسلمين، واكتشافاتهم، نلاحظ سمات المنهج العلمي عندهم سواء أكانت في العلوم الطبيعية، أم غيرها، من خلال ما انتهت إليه على الوجه التالي:

– **ففي العلوم الطبيعية**: التي تشمل العلوم التي لها علاقة بقوانين الطبيعة: كالفيزياء، والكيمياء، والفلك، وغيرها، فإن الباحث في هذه العلوم – وكما ذكرنا سابقًا – يحاول الكشف عن العلاقات، والقوانين التي تربط بين متغيرات كونية، كالعلاقة بين حجم الغاز، والضغط الواقع عليه، تحت درجة حرارة معينة، وكالعلاقة بين كتلة الجسم، وتسارعه بفعل قوة ثابتة، وكالعلاقة بين درجة حرارة جسم ولونه.

والبحث في هذه العلوم له منهجه الخاص، والمسمى بالمنهج التجريبي، والذي يقوم على فكرة مؤداها: (التجريب)، القائم على: المشاهدة، والحس، ثم الاختبار، وفق خطوات محددة، هي خطوات الطريقة العلمية.

---

[٢] أبو داود ح٣٨٥٥، الترمذي ح٢٠٣٨.

والواضح أن علماء المسلمين نهجوا في بحوثهم في هذا المجال المناهج التجريبي، والتزموا الأسس ذاتها التي نعرفها اليوم، وهذا موثق في كتاباتهم، وشروحهم، وأساليبهم البحثية، صحيح أنهم لم يفردوا له دراسات مستقلة، ولم يفصلوا خطواته، إلا أن ما وصلنا يدلل على أنهم نهجوا المنهج التجريبي، فتوصلوا إلى نتائج علمية موثوقة، وحقائق لم تكن معروفة من قبل، لا بل استخدموا الأجهزة المخبرية؛ للتحقق من قضايا علمية: بالتجريب، والقياس، والمشاهدة والحس، وسنعرض هنا بعض الشواهد، التي تدل على أن علماء المسلمين التزموا في بحوثهم، في مجال العلوم الطبيعية، منهجية بحثية، قائمة على أسس المنهج التجريبي، وأنهم سبقوا علماء الغرب في هذا المجال، وأن ما ينسب إلى (بيكون) حول الطريقة العلمية، وأنه أول من نادى باتباع أسلوب التجريب، ما هو إلا خروج على أخلاقيات البحث العلمي، والتي من أولى أولوياتها: الأمانة العلمية، هذه الأمانة التي تُحَتِّمُ أن ينسب الخير لأهله.

وقد أشار يعقوب (١٩٩٥) في هذا المجال أن (روجر بيكون) قد تتلمذ على يد علماء العرب، وبالتالي ليس له الحق في أن يُنسب إليه المنهج العلمي التجريبي!، فلم يكن (روجر بيكون) إلا طالبًا من طلاب العلم، والمنهج الذي ابتكره المسلمون، كما ذكر عن المؤرخ الفرنسي (جوستاف لوبون) في كتابه: "حضارة العرب" قوله: "ويعزى إلى (بيكون) أنه أول من أقام التجربة والترصد، اللذين هما ركن المناهج الحديثة في العلم، ولكنه يجب أن يعترف اليوم بأن ذلك كله أجمع من عمل العرب وحدهم.

وقد أكد عبد الله (١٩٨٠): أن التجربة العلمية أصبحت منطلق الكشوف عند علماء المسلمين في شتى الميادين، حيث كان الأطباء والباحثون، يبرزون هذه الظاهرة كبادرة جوهرية في دعم اتجاهاتهم، وقد سمي (أبو الحسن سفيان الأندلسي، المتوفي عام ٥٣٧هـ) كتابه في الطب: "كتاب التجريبيين".

لقد اهتم المسلمون بالعلوم التي يلزمها المنهج الاستقرائي، واتخذوا الملاحظة، والتجربة أداة التحصيل المعارف العلمية، واستعانوا بالأدوات العلمية (المخبرية) في القياس؛ ليحصلوا

على نتائج جديدة، في شـــتى أنواع العلوم: الفلك، الطبيعة، الكيمياء، والطب، وقد ظهرت أسماء لامعة منهم، في هذه الميادين، وغيرها، مثل: الحســـن بن الهيثم، الزهراوي، البيروني، والبَتّاني، وغيرهم. وقد أشـــار طوقان (١٩٨٧: ٩٩) إلى أن التجارب التي أجراها كل من: جابر بن حيان، ابن الهيثم، الرازي، البيروني، وغيرهم، في الطبيعة، والكيمياء، أثبتت أن العلماء العرب والمسلمين، قد عرفوا الطريقة العلمية الحديثة، التي تعد من مبتكرات هذا العصر الحديث، كما أن كتاب "المناظر" لابن الهيثم، يدلُّ على أنه وُجد من بين علماء العرب والمسلمين، من سار في بحوثه على الطريقة العلمية، كما وُجد من سبق (بيكون) في إنشائها، بل ومن زاد على طريقته، التي لا تتوافر فيها جميع العناصـــر اللازمة في البحوث العلمية. وقد اعتبر (عناية) (١٩٩٠: ٩٠): أن المسلمين هم أول من أرسى قواعد المنهجية الاستقرائية في العلوم التجريبية والكونية، وهم أول من أرســـى قواعد المنهجية العلمية الحديثة في الدراســـة، والبحث على أسس من الاتجاه العلمي، والفكر السديد.

قد أورد محمود (٢٠٠٠: ١٠١)، وطوقان (١٩٨٧: ١٠٢) مواقف عديدة، مثَّلتْ كفاءات لعلماء المسلمين في مجال العلوم التجريبية، ومنهجيتهم البحثية، من خلال: التجربة، والمشاهدة، ثم الاختبار، ومن ثم الاستنتاج، وأن عناصر الطريقة العلمية كانت جزءًا لا يتجزأ من أسلوبهم العلمي، وطريقتهم في الحصول على المعرفة العلمية، وتكوينها.

قال جابر بن حيان: إن واجب المشـــتغل في الطبيعة، والكيمياء، هو العمل، وإجراء التجارب، وأن المعرفة الطبيعية لا تحصـل إلا بها، وقد حدد الحسـن بن الهيثم، أصـول المنهج الاســـتقرائي تحديدًا دقيقًا، فقال: "تبتدئ بالبحث باســـتقراء الموجودات، ثم تصـــفح حال المتغيرات، وتمييز خواص الجزئيات" (يدعو إلى دراســة الجزئيات، واســتخدام الملاحظة العلمية المقصـودة، للوصـول إلى القوانين التي تحكمها) (البغدادي، ٢٠٠٣)، وروي عن الحسـن بن الهيثم قوله: "فرأيت أني لا أصل إلى الحق إلا من آراء يكون عنصرها الأمور الحسية وصورتها الأمور العقلية". وقد أوصـــى جابر بن حيان تلاميذه بالعمل، وإجراء التجارب؛ لأن من لا

يجري التجارب لا يصـــل إلى أدنى مرتبة من الإتقان، فعليك بالتجربة؛ لتصـــل إلى المعرفة". (محمود، ٢٠٠٠: ١٠٣).

وقد اســـتخدم علماء المســـلمين في كتاباتهم، ومؤلفاتهم الألفاظ الدالة على اعتمادهم منهج الطريقة العلمية، كقولهم: "ومما جربته بنفســـي"، "ومما اختبرته، ووفقت عليه بالعمل"، "وقد وقفت على ذلك بالتجربة"، "وقد جرَّبنا ذلك، وفعلناه مراراً" ، "امتحناه وجربناه"، ويعتبر البيروني: مخترع أول جهاز؛ لقياس الوزن النوعي للمعادن والأحجار الكريمة، حيث استطاع إيجاد الوزن النوعي بدقة، لثمانية عشر حجرًا كريمًا، وفلزًّا، بحيث لا تكاد تختلف عن قيمة الوزن النوعي المستخرج بأدق الأجهزة الحديثة (المهندس، ١٩٨٠؛ قاسم، ١٩٩٣).

وليس من الغرابة أن يشـهد مفكرون غربيون بأسـبقية المسـلمين في التعامل مع الطريقة العلمية في البحث في العلوم الطبيعية، حيث نقل الســـويدي (١٩٨١: ٢٠) عن بريفولت قوله: إن مصدر الحضارة الأوروبية الحقة هو منهج العرب التجريبي.

أما في العلوم الشرعية:

ويقصد بها كل ما له علاقة بالشريعة الإسلامية السمحة، بشكل مباشر: كعلوم الفقه، وأصـوله، والتفسـير، والسـيرة، والعقائد، والتلاوة، والتجويد، وغيرها، فسـوف نتعرض في هذه الدراسة لمنهجية علماء المسلمين البحثية، في موضوعين اثنين:

الأول: ما يتعلق بالاجتهاد.

والثاني: ما يتعلق بكتابة التاريخ.

– الاجتهاد:

أنزل الله – ســبحانه وتعالى – الإســلام على ســيدنا محمد ﷺ، ليبلغه للناس جميعًا، الذي عقائده، وأحكامه، الشـرعية مسـتوحاة من القرآن الكريم، والسـنة النبوية الشـريفة. فقد حملت النصـوص الشـرعية في القرآن والسـنة، ما يمكن أن يُفهم منها من أحكام شـرعية، ففي مواطن معينة جاءت هذه النصـــوص صـــريحة، لا تحتمل إلا معنى واحدًا، مثل قوله تعالى:

﴿وأحل الله البيع وحرم الربا﴾. [البقرة: من الآية ٢٧٥]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا﴾ [الحجرات: من الآية ١٢]، فهذه الآيات وما شابهها في النص، صريحة الدلالة (قطعية الدلالة)، أي: يُفهم منها كل من يعرف العربية أن البيع حلال، وأن الربا حرام، وأن التجسس حرام، كما جاءت نصوص أخرى بصيغ تحتمل أكثر من معنى، يَفهم منها المتمعن فيها أفهام متعددة، كقوله تعالى: ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُم﴾ [المائدة: من الآية ٦]، وقوله تعالى: ﴿ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ [البقرة: من الآية: ٢٢٨].

فالآية الأولى: يُفهم منها – وفق أصول وقواعد شرعية – بالإضافة إلى أن مسح الرأس في الوضوء فرض: أن بعض الرأس يكفي، وهذا البعض قد يكون النصف، أو الثلث، أو جزء منه، أو أن هذا (البعض) فيه مجال للاجتهاد. كما أنه من الآية الثانية، قد يُفهم من لفظ القرء: الطهر، وقد يفيد: الحيض.

والمعروف أن الله – سبحانه وتعالى – خاطب برسالته الناس جميعًا، قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

كما خاطب المؤمنين بوجوب الالتزام بأحكام هذا الدين، فقال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾ [البقرة: من ٢٨٢]. فصار على من سمع خطاب الله أن يفهمه، ويعمل به، لهذا كان الأصل في المسلم أن يفهم بنفسه حكم الله؛ حتى يتأتي أن يعمل به؛ لأنه يستحيل العمل بالخطاب الشرعي دون فهمه، وبما أن المخاطبين بالخطاب الشرعي متفاوتون في الفهم والإدراك، ومتفاوتون في التعليم، ومختلفون من حيث العلم والجهل؛ لذلك كان من المتعذر أن يفهم جميع الناس ما جاءت به النصوص بأنفسهم؛ لتفاوتهم في الفهم والإدراك؛ مما يستدعي أن على من يفهم ويعلم، ومن أعطاه الله بسطة في العلم، أن

ينقل ذاك العلم لغيره؛ ليفهم بما طلب منه من تكاليف شرعية على الوجه الصحيح، وهذا ما يقصد به بالاجتهاد.

والاجتهاد في اللغة، هو: استفراغ الوسع في تحقيق أمر من الأمور، مستلزم للكلفة والمشقة، أما في اصطلاح الأصوليين؛ فمختص: باستفراغ الوسع في طلب الظن بشيء من الأحكام الشرعية، من دليل تفصيلي من الأدلة الشرعية، على وجه يحس من النفس العجز عن المزيد. (خلَّاف، ١٩٥٦)، أي: بذل الوسع في فهم النصوص الشرعية ثم استنباط الحكم منها. وباختصار يمكن أن ينظر إلى الاجتهاد على أنه: فهم الخطاب، أي: فهم النصوص الشرعية لاستنباط الأحكام الشرعية منها أهي حلال؟ أم حرام؟ أهي فرض؟ أم مندوب؟ أم مباح؟ أم حرام؟ أو مكروه؟

والمقصود بالنصوص تلك التي تحتمل أكثر من معنى -كما ذكرنا سابقًا - أي ما كانت ظنية في دلالتها، فتلك هي النصوص التي يجتهد فيها، وهي أكثر النصوص الشرعية، أما ما عداها من النصوص القطعية في دلالتها، فلا مجال للاجتهاد فيها، "لا اجتهاد في مورد النص"، فلا اجتهاد في ماهية عقوبة الزاني، وعقوبة القاتل عمدًا، أو خطأً - مثلا -. (خلاف، ١٩٥٦). فالاجتهاد يكون في النصوص الواردة في الكتاب والسنة، لكنه لا يكون في موردها، ودلالتها القطعية.

ونصوص الشريعة الإسلامية تستوجب من المسلمين: الاجتهاد؛ لأن النصوص الشرعية لم تأت مفصلة، وإنما جاءت مجملة على جميع وقائع الحياة؛ لذا يحتاج فهمها، واستنباط الحكم منها إلى بذل الجهد، لأخذ الحكم الشرعي منها لكل حادثة. ومن هنا كان لابد من وجود مجتهدين؛ لفهم النصوص فهمًا، شرعيًّا، تطبيقيًّا، في كل وقت، وإلا لبقيت الحوادث دون معرفة حكم الله فيها، كون الحوادث تتجدد كل يوم، ولا تدخل تحت حصر، فالاجتهاد منهج أساسي في حياة الأمة الإسلامية؛ وباعتباره بمثابة الثورة المستمرة، التي تضمن للدين حريته، واستمراريته، على مر العصور.

والاجتهاد: ما هو إلا بحث في النصـــوص الشـــرعية (البيانات) بكيفية مخصـــوصـــة (منهجية)، للوصـــول إلى معرفة الحكم الشـــرعي (نتائج). وقد أطلق الخليفة (١٩٩٥: ٢٠) على هذه المنهجية: "المنهج الديني". ومنهجية العلماء المسـلمين البحثية في هذا المجال، تتمثل في خطوات محددة، ومعروفة عند المجتهدين، والأصوليين؛ وهي على النحو التالي:

الأولى: بذل الوسـع على وجه يحس المجتهد (الباحث) من نفسـه العجز عن المزيد فيه. وذلك يحتم على المجتهد أمرًا قد لا نجده في المناهج البحثية الأخرى؛ لذا لابد أن يبذل المجتهد كامل وُسعه وجهده، ولا يُقبل منه أقل من القيمة العظمى للأداء، والوصـول إلى تلك القيمة لا يعرفه إلا الباحث نفسـه، والرقيب، والحسـيب هو الله – سـبحانه وتعالى –، فإذا لم يبذل الوُســع كاملًا، لا يعتبر مجتهدًا، ولا يحق له أن يعطي عندها رأيًا في المســالة المبحوثة، وبذل الوُسع – ذلك – يلزم في جميع خطوات الاجتهاد، حتى الوصول إلى المراد.

الثانية: فهم المشكلة، فالمجتهد لا يجوز له أن يتقدم خطوة واحدة، قبل أن يفهم الواقع، أو المشكلة، ويحدد ملامحها، فإذا رغب المجتهد في استنباط الحكم الشرعي للاستنساخ – مثلًا – فعليه أولًا: أن يفهم الاســتنســاخ كما هو، وأن يحيط بجميع جوانبه، وذلك الفهم، يعني: فهم الواقع المبحوث كما هو، دون تحريف، أو زيادة، أو نقصـــان، فأي تحريف في الواقع، أو زيادة عليه، يعني: واقعًا جديدًا، كما لا يجوز للمجتهد أن ينتقل إلى الخطوة التالية قبل أن يستكمل تلك الخطوة.

وفي المناهج البحثية الحديثة يبدأ للباحث – بعد شعوره بالمشكلة – بما يُعرف بـــــــ: (تحديد المشكلة).

ولا يجوز للباحث أن يبدأ في بحثه، قبل وضـــوح مشـــكلة البحث في ذهنه، وتحديد معالمها، ويسمّي الفقهاء هذه القضية: (تحقيق المناط).

الثالثة: يقوم الباحث باستحضـار النصـوص الشـرعية، ذات العلاقة بمشـكلة البحث، فيضع الباحث بين يديه: جميع الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، والوقائع المشابهة، وكل ما

له علاقة، ويقلبها، ثم يتفحصـــها، من خلال معانيها: اللغوية، والشـــرعية، مع التعرف إلى: أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، وقوة الدليل، ودلالات الألفاظ والحروف، وغير ذلك من مستلزمات الاجتهاد المعروفة عند المجتهدين والأصوليين والفقهاء؛ ليصل من خلال النظر فيها – جميعها – إلى الحكم الشرعي للمسألة موضوع البحث. وهذه الخطوة هي أشبه ما تكون (بجمع المادة العلمية)، أو (بيانات البحث) في المناهج الحديثة.

الرابعة: الوصول إلى النتيجة، أي التعرف إلى الحكم الشرعي للمسألة، بمعنى أن يعلن المجتهد نتيجة اجتهاده، بأن الحكم الشـــرعي في تلك المســـألة، هو: (حرام) – مثلًا – أو (مكروه)، أو (مباح) ، أو غير ذلك، وفق الأصول المعتبرة في الخطوة الثالثة.

والملاحظ أن المجتهد لا يخرج في اجتهاده عن النصوص الماثلة بين يديه، كما لا يجوز له أن يقول برأيه إلا بدليل.

جهود العلماء المسلمين في طلب العلم:

سلك المسلمون سنن الرحلة في طلب العلم ابتداء من زمن النبي ﷺ فقد روي عن زيد بن وهب، أنه قال: "رحلت إلى رسول الله ﷺ، فقبض وأنا في الطريق". (الخطيب البغدادي، ٢٠٠٤: ١٦٧).

وهذه أخبار بعض الذين رحلوا لهذه الغاية من الصـــحابة، والتابعين، وتابعيهم: "فقد كان علقمة، والأسود يبلغهما الحديث عن عمر، فلا يقنعان، حتى يخرجا إلى عمر فيسمعانه منه". (الخطيب البغدادي، ٢٠٠٤: ١٩٧)، وروي عن ابن عباس – رضـي الله عنهما – أنه قال: "زيد بن ثابت كان من الراسخين في العلم، وكان يؤخذ له الركاب". (الذهبي، ١٩٥٧: ٣٢). وقال أبو الدرداء – رضـــي الله عنه – (ت ٣٢هـ): "لو أعيتني آية من كتاب الله فلم أجد أحدًا يفتحها علي إلا رجل ببرك الغماد لرحلت إليه". (الخطيب البغدادي، (٢٠٠٤ : ١٩٥).

وشـهد الشـعبي لمسـروق بن الأجدع (ت ٦٣هـ) بكثرة رحلاته، قائلًا: "ما علمت أن أحدًا أطلب للعلم في أفق من الآفاق من مسـروق". (ابن عبد ربه، د.ت: ٩٤). ويظهر ابن عباس – رضـي الله عنهما – (ت ٦٨ هـ) اسـتعداده للرحلة في طلب العلم بقوله: "وما من كتاب الله آية، إلا أعلم حيث نزلت، وفيم نزلت، ولو أعلم أحدًا أعلم بكتاب الله مني تبلغه الإبل لرحلت إليه". (الخطيب البغدادي، ٢٠٠٤: ٩٥). وحين يعلم ابن عباس – رضـي الله عنهما – أنه عند أحد الصحابة – رضي الله عنهم – حديث عن النبي ﷺ كان يذهب إليه، فيقيل على بابه، حتى يخرج فيحدثه، وإن كان ابن عباس – رضـي الله عنهما – يرى أنه لو بعث لذلك الرجل بالمجيء إليه لجاءه، إذا قال: "فلو أشـأ أن أرسـل إليه حتى يجيئني فعلت". (ابن عبد البر، د.ت: ٩٤).

وروى عطاء بن أبي رباح أن أبا أيوب الأنصـاري رحل إلى عقبة بن عامر – رضـي الله عنهما – (ت٥٨هـ) وهو بمصر، يسأله عن حديث سمعه من رسول الله ﷺ ، ولما جاءه خرج إليه فعانقه، وقال: "ما جاء بك يا أيا أيوب؟" فقال: "حديث سمعته عن رسـول الله ﷺ، لم يبق أحد سمعه غيري، وغيرك: في سـتر المؤمن"، قال: "نعم، فحدثته به"، وقال له أبو أيوب: "صـدقت" ثم انصـرف إلى راحلته، فركبها راجعًا إلى المدينة. (الخطيب البغدادي، ٢٠٠٤: ١١٨- ١٢٠). وذكر ابن الديلمي "أنه بلغه حديث عن عبد الله بن عمرو بن العاص (ت ٦٥هـ) فركب إليه إلى الطائف ليسـأله عنه، وكان ابن الديلمي بفلسـطين". الخطيب البغدادي، ٢٠٠٤: ١٣٥). ورحل جابر بن عبد الله – رضـي الله عنهما – (ت ٦٨هـ) إلى الشام في حديث بلغه عن أحد الصحابة – رضي الله عنهم – إذ قال: "فاتبعت بعيرًا، فشـددت عليه، رحلي ثم سـرت إليه شـهرًا، حتى قدمت الشـام، فإذا عبد الله بن أنيس الأنصـاري – رضـي الله عنه – ، فأتيت منزله، فاعتنقني واعتنقته، وقلت: "حديث بلغني أنك سمعته من رسول الله ﷺ في المظالم، لم أسمعه، فخشيت أن أموت قبل أن أسمعه، فحدثني به". (الخطيب البغدادي، ٢٠٠٤: ١١٠- ١١١).

وتحدث سعيد بن المسيب عن رحلاته العلمية، بقوله: "إن كنت لأسير الليالي والأيام في طلب الحديث الواحد". (ابن عبد البر، د.ت: ٩٤). وذكر سعيد بن جبير (ت ٩٥هـ): أن أهل الكوفة اختلفوا في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ﴾ [النساء: ٩٣]، فرحل إلى ابن عباس – رضي الله عنهما – فسأله عنها، فقال: "نزلت هذه الآية في آخر ما نزل، ما نسخها شيء". (الخطيب البغدادي ، ٢٠٠٤).

ورحل الحسن البصري (ت ١١٠هـ) إلى كعب بن عجرة (ت ٥١هـ) من البصرة إلى الكوفة. الخطيب البغدادي، ٢٠٠٤: ١٤٢)، وقال الشعبي (ت ١٠٣هـ) في أهمية الرحلة في طلب العلم: "لو أن رجلا سافر من أقصى الشام إلى أقصى اليمن ليسمع كلمة حكمة، ما رأيت أن سفره ضاع". الذهبي، ١٩٥٧: ٨٠). وروي عن مكحول (ت ١١٢هـ) أنه قال: "طفت الأرض في طلب العلم"، وقال أبو حاتم: "ما أعلم أفقه من مكحول، ولم يكن في زمنه أفقه بالفتيا منه". (الخطيب البغدادي، ٢٠٠٤: ١٩٨). وروي عن محكول قوله: "عتقت بمصر فلم أدع بها علمًا إلا حويته في ما أرى، ثم أتيت العراق، ثم المدينة، فلم أدع بهما علمًا إلا حويت عليه فيما أرى، ثم أتيت الشام، فغربلتها"، وقال ابن زرير: "سمعت مكحولًا يقول: "كنت عبدًا لسعيد بن العاص، فوهبني لامرأة من هذيل بمصر، فما خرجت من مصر حتى ظننت أن ليس بها علم، إلا وقد سمعته". (الذهبي، ١٩٥٧: ١٠٨).

وكان عكرمة (ت ١١٣هـ) (مولى لابن عباس)، واجتهد ابن عباس — رضي الله عنه – في تعليمه، فأصبح أحد فقهاء مكة من التابعين الأعلام، وقد رحل إلى مصر، وخراسان، واليمن، وأصبهان، والمغرب". (الحنبلي، د.ت: ١٣٠). ورحل شعبة بن الحجاج (ت ١٦٠هـ) إلى مكة، وذكر رحلته هذه بقوله: "فرحلت إلى مكة، لم أرد الحج، أردت الحديث"، وكانت رحلته هذه من أجل التثبت من إسناد الحديث، وعندما لم يجد ذلك في مكة، رحل إلى المدينة، ثم إلى البصرة، وتوصل أخيرًا أن سند ذلك الحديث ضعيف.

(الخطيب البغدادي، ٢٠٠٤: ١٥٢- ١٥٣)، وروي عن أحمد بن حنبل قوله: "لم يكن في زمان عبد الله بن مبارك (ت ١٨١هـ) أطلب العلم منه، رحل إلى اليمن، والى مصر، وإلى الشام، والبصرة والكوفة، وكان من رواة العلم". (الخطيب البغدادي، ٢٠٠٤: ٩١). ولذلك بلغت كتبه من حيث الإتقان غايته، وروى يحي بن آدم قال: "كنت إذا طلبت الدقيق من المسائل، فلم أجده في كتب ابن المبارك أيست منه". (الذهبي، ١٩٥٧: ٢٧٦).

ورحل الإمام الشافعي محمد بن إدريس (ت ٢٠٤هـ) إلى مكة، وكتب العلم بها، وبمدينة الرسول ﷺ، وقدم بغداد مرتين، وحدث بها، وخرج إلى مصر، فنزلها إلى حين وفاته. وسمع من علماء كثيرين منهم: مالك بن أنس، وسفيان بن عيينة، وداود بن عبد الرحمن، ومسلم بن خالد الزنجي، وإبراهيم بن أبي يحيى، ومطرف بن مازن، ومحمد بن الحسن الشيباني. وحدَّث عنه سليمان بن داود الهاشمي، وأحمد بن حنبل، وأبو ثور إبراهيم بن خالد، والحسن بن علي الكرابيسي، والحسن بن محمد بن الصباح الزعفراني.

روى إسماعيل بن يحي سمعت الشافعي، يقول: "حفظت القرآن، وأنا ابن سبع سنين، وحفظت الموطأ، وأنا ابن عشر سنين".

وروى عنه أنه قال: "أقمت في بطون العرب عشرين سنة آخذ أشعارها، ولغاتها".

وروي عن الربيع عن سليمان: "كان الشافعي يفتي، وله خمس عشرة سنة، وكان يحيي الليل إلى أن مات، وكتب عبد الرحمن بن المهدي إلى الشافعي أن يضع له كتابًا فيه معاني القرآن، ويجمع فنون الأخبار فيه، وحجة الإجماع، وبيان الناسخ والمنسوخ من القرآن والسنة، فوضع له: كتاب (الرسالة)". وقال إسحق بن راهوية: "ما تكلم أحد بالرأي، وذلك الثوري، والأوزاعي، ومالك، وأبا حنيفة، إلا الشافعي، أكثر اتباعًا، وأقل خطأً منه". وأثنى أهل العلم عليه، قال أبو الوليد بن أبي الجارود: "ما رأيت أحدًا إلا وكُتُبَه أكثر من مشاهدته، إلا الشافعي؛ فإن لسانه كان أكثر من كتابه، وكان قوي الحجة، والمناظرة، حتى إن هارون بن

سعيد الأيلي، قال: "لو أن الشافعي ناظر هذا المغمود، الذي من حجارة، أنها من خشب لغلب؛ لاقتداره على المناظرة".

وروى الحسن بن محمد: "كنا نختلف إلى الشافعي، عندما قدم إلى بغداد ستة أنفس: أحمد بن حنبل، وأبو ثور، وحارث النفال، وأبو عبد الرحمن الشافعي، وأنا، ورجل آخر سماه، وما عرضنا على الشافعي كتبه، إلا وأحمد بن حنبل حاضر لذلك". وقال أبو الفضل الزجاج: "لما قدم الشافعي إلى بغداد، وكان في الجامع: – إما نيف وأربعون حلقة، أو خمسون حلقة – فلما دخل بغداد، ما يزال يقعد في حلقة حلقة، ويقول لهم: قال الله وقال الرسول، وهم يقولون: قال أصحابنا، حتى ما بقي في المسجد حلقة غيره". (ابن خلكان، د.ت : ١٦٣–١٦٥).

ورحل الإمام البخاري، محمد بن إسماعيل (ت ٢٥٦هـ) في طلب العلم إلى سائر محدثي الأمصار، كتب بخراسان، والجبال، ومدن العراق كلها، والحجاز، والشام، ومصر، وسمع من خلق كثير، لا يتسع ذكرهم، منهم: مكي بن إبراهيم اللخمي، وعبد الله بن عثمان المروزي، وأبو نعيم الفضل بن دكين، وأبو الوليد الطيالسي، وأبو بكر الحميدي، وعلي بن المديني، وأحمد بن حنبل، ويحيى بن معين. وورد بغداد عدة مرات، وحدَّث بها، فروى عنه من أهلها: إبراهيم بن إسحاق الحربي، ويحيى بن محمد بن صاعد، وآخر من حدث عنه بها: الحسين بن إسماعيل المحاملي.

وروي عن البخاري قوله: "ألهمت حفظ الحديث، وأنا في الكُتَّاب، وكان عمري عشر سنين أو أقل، ثم خرجت من الكُتَّاب بعد العشر، فجعلت أختلف إلى العلماء، وأصحح بعض رواياتهم، فلما طعنت في ست عشرة سنة، حفظت كتب ابن المبارك، ووكيع، وعرفت كلام هؤلاء، وتخلفت بعد أداء الحج في مكة، فلما طعنت في ثمان عشرة، جعلت أصنف قضايا الصحابة، والتابعين، وأقاويلهم، وصنفت كتاب "التاريخ" إذ ذاك عند قبر الرسول ﷺ

في الليالي المقمرة، وقلَّ اسم في التاريخ إلا وله عندي قصة". وصنف البخاري كتابه الجامع الصحيح في أحاديث رسول الله، وقال في ذلك:

"كنت عند إسحاق بن راهوية، فقال لنا بعض أصحابنا: لو جمعتم كتابًا مختصرًا لسنن النبي ﷺ، فوقع ذلك في قلبي، وأخرجت هذا الكتاب من زهاء ستمائة ألف حديث". وروى إبراهيم بن معقل عن البخاري، قوله: "ما أدخلت في كتابي الجامع إلا ما صح"، وسمع كتاب البخاري خلق كثير، فقد روي عن محمد بن يوسف القريري أنه كان يقول: "سمع كتاب الصحيح، تسعون ألف رجل، فما بقي أحد يروي منه غيري"!.

وعن كثرة سماعه، وروايته، ودقته، قال جعفر بن محمد القطان أمام الجامع بكرمينية: سمعت البخاري يقول: "كتبت عن ألف شيخ وأكثر، ما عندي حديث لا أذكر سنده".

قال محمد بن أبي حاتم الوراق: سمعت حاشد بن إسماعيل، يقول: "كان أبو عبد الله محمد بن إسماعيل يختلف معنا إلى مشايخ البصرة وهو غلام"، وقال:" كان أهل المعرفة من أهل البصرة يعدون خلقه في طلب الحديث وهو شاب حتى يغلبوه على نفسه ويجلسونه في بعض الطريق، فيجتمع عليه ألوف أكثرهم ممن يكتب عنه". وقال يوسف بن يحيى المروزي: "كنت بالبصرة في جامعها، إذ سمعت مناديا ينادي: يا أهل العلم قد قدم محمد بن إسماعيل البخاري، فقاموا في طلبه وكنت معهم". فلما فرغ من الصلاة، سألوه أن يعقد لهم مجلس إملاء، فأجابهم إلى ذلك، فلما أن كان بالغداة حضر الفقهاء، والمحدثون، والحفاظ، والنظار، حتى أجمع قريب من كذا وكذا ألفًا.

وصف أهل البصرة، والكوفة، والحجاز، والري، وبغداد فضله، ومدحوه. فقال أهل البصرة فيه: "هو سيد الفقهاء، ورابع حفاظ الدنيا"، وقال أهل الكوفة والحجاز فيه: "محمد بن إسماعيل، أفقه عندنا، وأبصر من ابن حنبل". وقال صالح بن محمد البغدادي: "كان محمد بن إسماعيل يجلس ببغداد، وكنت أستملي له، ويجتمع في مجلسه أكثر من عشرين ألفًا". وجرى اختباره في الحديث بسمرقند وبغداد، وأقر له الجميع بالحفظ، وأذعنوا له بالفضل.

وقال أبو عيسى الترمذي: "ولم أر أحدا بالعراق ولا بخراسان في معنى العلل، والتاريخ، ومعرفة الأسانيد أعلم من محمد بن إسماعيل". (ابن كثير، ١٩٨٧: ٢٧- ٣٠).

ورحل أبو حاتم الرازي، محمد بن إدريس بن المنذر (ت ٢٧٧هـ) إلى مختلف البلاد وطوف فيها.

قال ابن أبي حاتم في أول كتاب "الجرح والتعديل" له: "سمعت أبي يقول: "أول سنة خرجت في طلب الحديث، أقمت سبع سنين، أحصيت ما مشيت على قدمي زيادة على ألف فرسخ، ثم تركت العدد بعد ذلك، وخرجت من البحرين إلى مصر ماشيًا، ثم إلى الرملة ماشيًا، ثم إلى دمشق، ثم أنطاكية وطرسوس، ثم رجعت إلى حمص، ثم إلى الرقة، ثم ركبت إلى العراق، كل هذا في سفري الأول، وأنا ابن عشرين سنة، ثم بقيت في البصرة ثمانية أشهر، فانقطعت نفقتي، فجعلت أبيع ثيابي حتى نفدت، وبقيت بلا نفقة، وأنا أشرب الماء من الجوع". (الذهبي، ١٩٩٨: ١٠٧٥- ١٠٧٨).

ورحل المحدث الحافظ الأصبهاني، محمد بن إسحاق بن منده (ت ٣٩٥هـ) إلى نيسابور فأدرك أبا حامد بن بلال، وكتب عن الأصم نحوًا من ألف جزء، ثم رحل إلى بغداد فلقي ابن البحتري، والصفار، ولقي بدمشق: خيثمة بن سليمان، وطبقته، ولقي بمكة: أبا سعيد بن الأعرابى، وبمصر: أبا الطاهر المديني، وببخاري ومرو وبلخ: جماعة، وطوَّف الأقاليم، وكتب بيده عدة أحمال، وبقي في الرحلة نحوًا من أربعين سنة، ثم عاد إلى وطنه شيخًا، فتزوج ورُزق الأولاد، ويُقال: إنه لما رجع إلى بلده أصبهان، قدمها ومعه أربعون حملًا من الكتب والأجزاء، قال ابن منده الأصبهاني رحمه الله: "كتب عن ألف شيخ، وسبعمائة شيخ". (الذهبي، ١٩٥٧: ١٠٣٢).

ورحل الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت (ت ٤٦٣هـ) إلى بلدان عديدة، وقد تضمن كتابه "الرحلة في طلب الحديث" ترجمة كاملة لحياته. وبدأت رحلته الأولى لسماع الحديث من شيوخ البصرة، عند بلوغه سن العشرين، كذلك زار الكوفة، وحضر

مجالس شـــيوخها، وعاد إلى بغداد، وعقد مجلس الحديث فيها، ثم رحل رحلة ثانية طويلة في طلب الحديث، بناء على نصـيحة شـيخه البرقاني إلى نيســابور، التي كانت زاخرة بالمحدثين. وقد زوده البرقاني بكتاب توصـية إلى أبرز محدِّثي تلك المدينة، أبي نعيم الأصـبهاني، يتضـمن إطراءً للخطيب، يدلُّ على المستوى العالي الذي بلغة الخطيب في دراسات الحديث.

ثم زار نيسـابور مرة ثانية، والري، وخراسـان، وأصـبهان، وهمذان، والجبال، والدينور، ثم عاد إلى بغداد، وأخذ شـيخه البرقاني يتبادل واياه رواية الحديث، على سـبيل المذاكرة، وأكثر من هذا صار يروي الحديث في مجالسه نقلًا عن الخطيب، وهو قليل الوقوع بين المحدثين.

وفي عام ٤٤٤هـ قرر الخطيب أداء فريضة الحج، فتوجه أولًا إلى دمشق، وصور، ثم إلى مكة، وأثناء وجوده في مكة شـارك في مجالس العلم التي كانت تعقد في البلد الحرام، وكان من أهمها مجلس كريمة بنت أحمد المروزية، التي أجازته، وسمع منها صـــحيح البخاري، ومن مكة توجه إلى الشـــام، فزار بيت المقدس، ولقي فيها الأســترأبادي الذي كان في طريق عودته من الحج، وسمع منه بعض الحديث، ثم عاد إلى بغداد، وحصل على موافقة الخليفة القائم بأمر الله بقراءة الحديث في جامع المنصور، وصار هذا الجامع من أبرز مؤسسات التعليم في بغداد، وفي تلك الأثناء أتم تصنيف كتابه تاريخ بغداد، فصـار يمليه على الطلاب، وبعد ثورة البسـاسـيري على الخليفة القائم بأمر الله وسـجنه، رحل الخطيب إلى دمشـق، وحصـل على ترخيص بعقد مجلسه في الجامع الأموي الكبير، حيث كان يحضره عدد ضخم من الطلبة والعلماء.

وبعد مرور ثماني سـنوات، احتل العبيديون دمشـق، فرحل الخطيب إلى صـور، وقضـى فيها ثلاث سنوات، ثم عاد إلى بغداد بعد أن قارب السبعين، واستمر في التدريس، واستأنف مجلسه في جامع المنصور، حيث عاود التحديث، وإملاء كتابه "تاريخ بغداد"، وألف تصانيف عديدة، كان اهتمامه فيها منصـــبًّا على الحديث، وتراجم العلماء، ومن أشـــهرها: "تاريخ بغداد"، و"الرحلة في طلب الحديث". وذاع صـــيته بين المحدثين والعلماء، حتى إن ابن نقطة قال: "إن المحدثين عيال على كتب الخطيب". (العش، ١٩٥٤).

ورحل الإمام الحافظ، محدث خراسان السمعاني (ت ٥٦٢هـ) أبو سعد عبد الكريم إلى بلدان شتى، حتى إنه لا يوصف كثرة البلاد والمشايخ الذين أخذ عنهم. فسمع بأمل طبرستان، وبأبيورد، وبأسفراييني، وبالأنبار، وبخاري، وبيروجرد، وببسطام، وبالبصرة، وببغشور، وببلخ، وبترمذى، وبجرجان، وبحلب، وبحماة، وبحمص، وبخرتنك عند قبر البخاري، وبخسروجرد، وبالري، وبسرخس، وبسمرقند، وبهمذان، وهراة والخرمين، والكوفة، وطوس، والكرخ، ونَسا، وواسط، والموصل، ونهاوند، والطالقان، وبوشنج، والمدائن، وبقاع يطول ذكرها، حيث زار: القدس، والخليل، وهما بأيدي الفرنج.

درّس السمعاني، وأفتي، ووعظ، وكان يلقب بلقب والده "تاج الإسلام"، قال ابن النجار: "سمعت من يذكر أن عدد شيوخ أبي سعد سبعة آلاف شيخ". قال: "وهذا شيء لم يبلغه أحد، وكان حافظًا، واسع الرحلة، ثقة، سمع منه مشايخه وأقرانه". (الترمذي، ١٩٩٨: ١٥٧٧).

دراسات سابقة:

خصص أفلانيه (١٩٩٢) فصلًا من كتاب بعنوان: الرحلة في طلب الحديث، استهدف التعريف بهذه الرحلة، وذكر أن الرحلة في طلب العلم مهمة جليلة، تستمد مشروعيتها من الكتاب والسنة، وأن أهدافها في الأساس: أهداف تربوية تعليمية، إذ تنوعت أهداف الرحلة بتنوع عهودها: وهي عهد الرسول ﷺ وعهد الصحابة، وعهد التابعين ومَن بعدهم، وخلص من ذلك إلى أن أهداف الرحلة تمثلت في أمور ثلاثة، هي: طلب المعرفة، وضبط المعرفة، ونشر المعرفة.

ولأهمية الرحلة وأهدافها، كان الحث عليها، وتوصية المحدثين والعلماء بها. وبعد استقراء عدد النصوص خلص الكاتب إلى ذكر أهم شروط الرحلة، وأهم نتائجها.

وقام العمري (١٩٩٤) ببحث استهدف التعريف بفن التراجم عند المحدثين، تناول فيه لونًا من ألوان الكتابة التاريخية، أي: علم الرجال، وما يندرج تحته من موضوعات، واستعرض

مضـــمون مادة التراجم: كالمولد، والوفاة، والشـــيوخ، والتلاميذ، والرحلات العلمية، وعد الرحلات العلمية جانبًا من جوانب مضـمون مادة التراجم، مبينًا بداية ظهور الاهتمام بالرحلة في طلب العلم، وأمثلة على الصـحابة — رضـي الله عنهم – الذين رحلوا لهذا الشـأن، ودواعي رحلاتهم وأسبابها، والفائدة من التزام المصنفين في التراجم، بذكر الرحلات العلمية في الترجمة.

وأجرى العمري (١٩٩٧) دراسة استهدفت الكشف عن دور الرحلة في تنشيط الحركة العلمية، مع التركيز على القرن الخامس الهجري، متبعًا المنهج التاريخي، والمنهج الوصـــفي التحليلي. وكان من أبرز نتائجها: أن الرحلة في طلب العلم بدأت مبكرًا في جبل الصحابة – رضوان الله عليهم – وأن أهم دوافعها كانت: طلب الإسناد العالي في الحديث الشريف، حتى نهاية القرن الثالث الهجري، وأنها انتشـــرت واتســـع نطاقها في القرن الخامس الهجري، وأن دوافعها الخاصة تتصل بطلب الحديث الشريف، وطلب العلوم الشرعية، وتأدية فريضة الحج، وكان لها أهدافها العامة: لنشر الدعوة الإسلامية، وطلب العلوم الشرعية، وغير الشرعية. ولها أغراضـــها الجغرافية: من وصـــف الأقاليم، ومعرفة الأجناس في البلاد التي فتحها المســـلمون، فضـــلًا عن التجارة، التي كانت من الدوافع المهمة الرحلة. ومن نتائجها – أيضًـــا –: وجود ارتباط وثيق، وعلاقة إيجابية بين الرحلات العلمية، وبين ظهور المدارس، والمؤســـســـات التعليمية، والتربوية. وأن الرحلات التي خلفها المســـلمون تمثل ثروة علمية وأدبية مهمة، وتعد من أهم المصادر: العلمية، والجغرافية، والتاريخية، والثقافية.

وقام الأزمي (٢٠٠٠) ببحث اســـتهدف التعريف برحلة الحج التي قام بها محمد بن يحيى الولاتي، كمثال على الرحلة الحجية المغربية، ودورها في تمتين العلاقة الثقافية بين البلدان العربية الإسلامية في نهاية القرن التاسع عشر. وبين أن الحج كان من أهم العوامل التي دفعت المســـلمين إلى الرحلة والانتقال، وأن الرحلة الحجازية الحجية اســـتأثرت باهتمام المغاربة على امتداد تاريخ المغرب الإســـلامي، رحلةً وتأليفًا. وقدم البحث تعريفًا بصـــاحب الرحلة كواحد من كبار علماء بلاد شـنقيط، وما تميزت به رحلته عن غيره من المغاربة، بتركيزها على قضـايا

علمية، تناولتها أجوبته عن الأمثلة المختلفة التي طرحت عليه في الحجاز، ومصـــر، وتونس، وما تضـمنته من أسماء العلماء، وما قدمته من وصـف لأحداثها، ومراحلها، وما سـلطته من أضواء على النشاط العلمي المتميز، بالإسكندرية، والقاهرة، وحركة الطباعة المزدهرة بها، وعن النشاط المماثل في تونس، وكثرة العلماء فيها.

وقام علوي (٢٠٠٠) ببحث اسـتهدف الكشـف عن وقائع الرحلة العلمية السـودانية إلى المغرب قبل منتصـف القرن الرابع عشـر الميلادي وبعده. وبين البحث أن الرحلة العلمية من السودان الغربي إلى المغرب في العصر الوسيط تعد مظهرا من مظاهر الحضارة الإسلامية، وثمرة لظروف مشـجعة في كلا البلدين، إذ كانت سـبل التواصـل ممهدة بينهما، بفعل تواتر التبادل التجاري، الذي كانت مسالكه لا تقتصر على البضائع فحسب، وإنما تنقلت عبرها الأخبار والأفكار والرجال. وتبين أنه نظرا لانتماء طلبة السـودان إلى بلد يتمذهب بالمالكية، ويولي اهتماما خاصـة بالدراسـات الفقهية واللسـانية، فإنهم وجدوا في مدينة فاس ضـالتهم المنشودة. وكانت فاس عاصمة المغرب الأقصى العلمية، وهي بلد المدارك والمدارس والمشايخ والمكتبات والفهارس، وأتاح ذلك لطلبة السودان تكوينا علمية رصينة، ساعدهم على نشر الإسـلام ببلاد السـودان، وتلقين العلم وتأليف الكتب، حتى أصـبح طلاب العلم يرحلون بدورهم للتحصيل العلمي في المعاهد السودانية.

وأجرى بنعبد الله (٢٠٠٣) بحث هدف إلى تعريف الرحالة العرب والمسـلمين من المغرب واليه، وقدم أمثلة مقتضـبة لهذه الرحلات. فذكر أن أهم من قاموا بالرحلات غير الحجازية: إبراهيم بن خلف الغساني الدمشقي السنهوري، وابن بطوطة، والشريف الإدريسي، وأن أهم من قاموا بالرحلات الحجازية: ابن جبير محمد بن أحمد الكتانتي الأندلسـي، وابن جعفر محمد بن إدريس الكتانتي، وعبد الله بن محمد بن أبي بكر أبو سـالم العياشـي، وخلص البحث إلى أن هناك رحلات أخرى غير التي ذكرها يتعذر اسـتيفاؤها، وأن الرحلات عملت على توثيق الصلات والروابط بين الشعوب الإسلامية، ومبادلة الإجازات بين العلماء، وتلاقي

معطيات الفكر العربي الإسلامي، مما لم يعرف له نظير حتى بعد عصر النهضة. زيادة على ما صنفه العلماء من فهارس وأثبات، وسجلوا فيها إجازاتهم، وما جنوه من ثمار خلال رحلاتهم.

تعقيب على الدراسات السابقة:

أوضحت نتائج الدراسات السابقة أهمية الرحلة في طلب العلم في الإسلام، والحاجة إلى البحث فيها. كما حرص العلماء في تخطي الصعاب، وتجاوز القفار من أجل الحصول على حديث مسند، أو فُتيا غائبة، وكم كانت هذه الرحلات يشوبها الأهوال مع طول المسافة، كما أن هذه الدراسات تناولت الموضوع من زوايا متفرقة، وغير متكاملة، إذ غابت عنها فكرة الربط بين واقع الرحلة في طلب العلم في الإسلام، وتوظيفها في إطار تربوي معاصر، إلى جانب افتقارها إلى المعالجة العلمية الحديثة.

نتائج الدراسة:

تم من خلال عرض المفاهيم الخاصة بالدراسة، ونتائج الدراسات السابقة الوصول إلى النتائج التالية:

(١) أن الإسلام دين علم، وأن الله قد ابتدأ وحيه إلى نبيه المصطفى ﷺ وبأمر القراءة التي اشترط فيها أنها باسمه تعالى، ثم وصف نفسه تعالى بأن تعليمه بالقلم، وتعليمه ما لم يعلمه الإنسان.

(٢) أن الإسلام دين علم، ومعرفة، وحضارة، قلما نجد دينًا حض أمته على العلم والتعلم أوضح من الدين الإسلامي، حيث قد اقترن مكانة العلم والمعرفة بالإيمان في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ١١]. ويشير إلى هذا المعنى ما يروى عن أنس بن مالك – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: "من خرج في طلب العلم كان في سبيل الله حتى يرجع". (أخرجه الترمذي، ح ٢٦٤٩).

(٣) تعد حياة الإنسان كلها قائمة على السعي الدؤوب في جمع العلم والمعرفة. فمنذ أن خلق الله آدم، وأنزله في الأرض، والإنسان يعمل عقله وفكره، ويبحث عن أفضل السبل لممارسة الحياة فوق سطح الأرض، وتحقيق وظيفة الاستخلاف التي خلق الله الإنسان من أجلها.

(٤) أن البشر يأخذون معارفهم، وأخلاقهم، وما يتحلون به من المذاهب، والفضائل تارة: علمًا، وتعليمًا والقاءً، وتارةً: محاكاةً وتلقينًا بالمباشرة، إلا أن حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشد استحكامًا، وأقوى رسوخًا، فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها.

(٥) أن السمات النفسية التي ينبغي أن يتحلى بها من يشتغل بالعلم: الصبر، والتحمل، والإيثار، والزهد، والتعاون، والبر بأهل الفضل، وتقدير العلم والعلماء.

(٦) مثلما كان لعلماء المسلمين صولة وجولة في مجالات علمية شتي: الشرعية، والإنسانية، والطبيعية، وفي عصور كانوا فيها سادة العلم، كما هم سادة الموقف، كان لهم أيضًا شأن في منهجية البحث العلمي، وقد برز ذلك جليًّا من خلال ممارستهم الحقيقية لتلك المنهجية في أبحاثهم، وكتاباتهم، وشروحهم حول اكتشافاتهم العلمية.

(٧) أن هناك خطوات أو قواعد فرعية خاصة، تميز البحث العلمي في مجال من المجالات دون آخر، أي أن هناك مناهج متعددة، وفقا لتعدد وتجدد أصناف المعارف، ولكنها تشترك في خطوات وقواعد عامة.

(٨) تبنى العلماء المسلمين الطريقة العقلية لمعرفة حقيقة الشيء الذي يبحث عنه عن طريق نقل الحس بالواقع بواسطة الحواس إلى الدماغ، ووجود معلومات سابقة يفسر بواسطتها الواقع، فيصدر الدماغ حكمه، وهذا الحكم هو الإدراك الفعلي، وهو المعرفة التي تتكون لدى الفرد، وتكون في بحث المواد المحسوسة المدركة بذاتها كالأشياء المحسوسة، والظواهر الطبيعية المحسوسة، أو في المدرك أثرها دون إدراك ذاتها؛ كمخلوقات الله الدالة على

الخالق، وأثر الإلكترون الدال على الإلكترون، وتصلح هذه الطريقة – أيضًا – في بحث التشريع والعقائد وغيرها.

(٩) اهتم علماء المسلمين بالسيرة؛ لأنها تحوي أخبار الرسول ﷺ من أفعاله، وأقواله، وسكونه، وتلك كلها جمعاء تشريع كالقرآن، فالعناية بالسيرة، وتتبعها أمر شرعي؛ فكان اهتماماتهم بذلك الجانب التاريخي اهتمامًا شرعيًّا، سواء أكان من حيث الهدف، أم من حيث المنهجية. وقد أدى اهتمامهم ذلك، إلى رفع الكثير من القواعد الدقيقة والصارمة، والتي تعد بحق من قواعد المنهج التاريخي الحديث، والتي أعدت في حينها موازين ومعايير تقبل على أساسها الرواية أو ترد.

(١٠) سار علماء المسلمين في كتابة التاريخ الإسلامي كما ساروا في كتابة السيرة والحديث سواء بسواء. أي أن الطريقة التي اتبعت في تدوين التاريخ هي نفسها التي اتبعت في تدوين الحديث، فكتب التاريخ التي عدت من المصادر، هي ما كتب بطريقة الرواية أو بطريق الملاحظة المباشرة، وتلك الكتب مثل: "سيرة ابن هشام"، و"تاريخ الطبري" اعتمدت الملاحظة المباشرة، والتي من خلالها تم تحديد أحداث ووقائع وآراء، وإذا لم تكن كذلك بالنسبة للحديث والسيرة؛ نظرًا لانعدام الملاحظة المباشرة، إلا أنها جميعها كتبت بطريقة رواية الخبر عن شاهده، أو عن أشخاص سمعوا من شاهده، وتلك هي أصح طرق كتابة التاريخ، وهو ما يُعرف حديثًا بالمصادر الأولية، أو البيانات الأولية.

(١١) أن الكثير من الأفكار، والأصول المنهجية الحديثة، والعديد من أصناف المناهج البحثية المعروفة اليوم، قد عرفها علماء المسلمين، إن لم يكونوا هم من أرسى أسسها في حينها، فكانت جزءًا من تراثهم العلمي.

(١٢) حرص علماء المسلمين على أخلاقيات البحث، مثل: الصدق، الأمانة العلمية، التوثيق، والسعي لإظهار الحق؛ بغية مرضاة الله.

(١٣) سار علماء المسلمين وفق منهجية بحثية منضبطة، وقد كانت جزءًا من علومهم، وإنجازاتهم، قد ارتفعت إلى مستوى العلم الذي وصلوا إليه، وأوصلوه للآخرين.

(١٤) أن المنهجية العلمية لعلماء المسلمين إسلامية المصدر، إسلامية الهدف، وكانت نتاجًا طبيعية لرؤية الإسلام الخاصة للعلم، وحثه على الإبداع والابتكار، في شتى المجالات العلمية دونما تمييز بين علم وآخر.

(١٥) إن علماء المسلمين قد فهموا معنى البحث العلمي، وقد أدركوا أهميته لحياتهم، كأمة تسعى لنشر الدين الإسلامي، وقد كانت لهم همة عالية في البحث، ومنهجية واضحة المعالم، وأخلاقيات بحثية متجددة، مصدرها القرآن الكريم والسنة النبوية. وإلى جانب هذا، قد ميزوا بين العلوم الطبيعية ومنهجيتها البحثية، وبين العلوم الإنسانية ومنهجيتها، وعرفوا الطريقة العلمية، كما هي الآن، وعرفوا كيف تطبق هذه الطريقة وفي أي المناهج البحثية، وأدركوا أنه يستحيل تطبيقها في ميادين معينة، فكانت لهم نظرة ثاقبة، توصلوا من خلالها إلى أقاصي الأرض، بدينهم وعلمهم.

توصيات الدراسة:

من خلال مراجعة نتائج الدراسات، تم التوصل إلى التوصيات التالية:

(١) ينبغي أن تتضمن المناهج التعليمية في شتى المراحل الدراسية، سيرة مستفيضة عن جهود العلماء المسلمين في مجال البحوث العلمية عامة، والشرعية خاصة.

(٢) يجب عند إعداد طلاب الدراسات العليا التركيز على أهمية المناهج البحثية، لأنها تعد بمثابة الأرضية العلمية السليمة، لإنتاج بحوث علمية ذات قيمة.

(٣) ينبغي تعليم الطلاب في المراحل التعليمية المختلفة، أهمية طلب العلم والسعي إليه، والفوائد المترتبة عليه.

(٤) لابد من عقد ندوات علمية للتركيز على دور الرحلة في طلب العلم، والفوائد الناجمة من هذا.

المراجع

- إبراهيم، محمد إسماعيل (١٩٦٨). معجم الألفاظ والأعلام القرآنية، القاهرة: دار الفكر العربي.
- ابن خلكان، شمس الدين أحمد (د.ت). وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان (تحقيق: إحسان عباس)، المجلد الرابع، بيروت: دار صادر.
- ابن عبد البر، يوسف (د.ت). جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله، الجزء الأول والثاني، بيروت: دار الكتب العلمية.
- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل (١٩٨٧). البداية والنهاية (تدقيق: أحمد أبو ملحم وزملاؤه)، المجلد السادس، الطبعة الثالثة، بيروت: دار الكتب العلمية.
- أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني، سنن أبي داود، الكتب الستة، دار الدعوة، استنانبول، تركيا.
- أبو سمرة، محمد أحمد، والبرغوثي، عماد أحمد، وصالح عبد الكريم محمود (٢٠٠٥). الإسلام والعلم ، دعوة تحريضية إلى الجهاد العلمي، القدس، مكتبة دار الفكر.
- الأزمي، أحمد (٢٠٠٠). دور الرحلة الحجية المغربية في تمتين العلاقات الثقافية بين البلدان العربية الإسلامية، رحلة محمد بن يحيى الولائي نموذجًا، مجلة دعوة الحق، السنة (٤١)، العدد (٣٥٠): ٣٩- ٥٤.
- أفلانيه، المكي (١٩٩٢). النظم التعليمية عند المحدثين في القرون الثلاثة الأولى، كتاب الأمة، سلسلة مركز البحوث والمعلومات بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في دولة قطر، الدوحة.
- أنيس، إبراهيم وزملاؤه (١٩٧٢). المعجم الوسيط (جزءان) ، استانبول، المكتبة الإسلامية.

- البخاري، محمد إسماعيل، صحيح البخاري، الكتب الستة، دار الدعوة، إستنانبول، تركيا.
- بدري، مالك (١٩٩٢). التفكر من المشاهدة إلى الشهود، الرياض، المعهد العالي للفكر الإسلامي.
- البغدادي، محمد رضا (٢٠٠٣). تاريخ العلوم وفلسفة التربية العلمية، بيروت، دار الفكر العربي.
- بنعبد الله، عبد العزيز (٢٠٠٣). الرحالة العرب والمسلمون: اكتشاف الآخر، المغرب منطقًا وموئلًا، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة.
- الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة، سنن الترمذي، الكتب الستة، دار الدعوة، إستانبول، تركيا.
- التهانوي، محمد علي (١٩٩٨). كشاف اصطلاحات الفنون، المجلد الثالث، بيروت، دار الكتب العلمية.
- الجرجاني، الشريف علي بن محمد (١٩٨٨). كتاب التعريفات، الطبعة الثالثة، بيروت، دار الكتب العلمية.
- الحنبلي، ابن العماد (د.ت). شذرات الذهب في أخبار من ذهب (ثمانية أجزاء)، بيروت، دار إحياء التراث العربي.
- الخطيب البغدادي، أحمد بن علي ثابت (٢٠٠٤). الرحلة في طلب الحديث (تحقيق: نور الدين عتر)، بيروت، دار الكتب العلمية.
- خلاف، عبد الوهاب (١٩٥٦). علم أصول الفقه، القاهرة، مكتبة دار التراث.
- الخليفة، كمال فضل السيد (١٩٩٥). العلم والدين، الخرطوم، دار جامعة الخرطوم للنشر.

- الذهبي، شمس الدين محمد (١٩٥٧). تذكرة الحفاظ (أربعة أجزاء)، الطبعة الثالثة، حيدر آباد، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية.
- الذهبي، شمس الدين محمد (١٩٩٨). نزهة الفضلاء وتهذيب سير أعلام النبلاء (إعداد: محمد حسن عقل) ، المجلد الثالث، الطبعة الثالثة، جدة، دار الأندلس الخضراء.
- رشوان، حسين عبد الحميد (١٩٨٥). العلم والبحث العلمي، الإسكندرية، المكتب الجامعي الحديث.
- الريس، محمد فضالي (١٩٩٢). وجهة نظر حول دور البحث العلمي الجامعي في التنمية، مجلة التعريب ، العدد (٣).
- سلمان، رشيد سلمان (١٩٩٣). أزمة البحث العلمي في الوطن العربي، مجلة شؤون عربية، العدد (٧٥).
- السويدي، يوسف (١٩٨١). الإسلام والعلم التجريبي، الكويت، عالم المعرفة.
- شرف الدين، على الطاهر (١٩٩٧). حول الخصائص القرآنية في مجال العلوم الكونية، مجلة أبحاث الإيمان، العدد (١)، السنة الثالثة.
- شهاب، سلام جبار (٢٠٠٩). فلسفة العلم ومنهاج البحث العلمي، أربد، الجامعة التكنولوجية.
- طوقان، قدري حافظ (١٩٨٧). العلم مع الحياة، بيروت، مكتبة المعارف.
- عبد الباقي، محمد فؤاد (١٩٤٥). المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، القاهرة، دار الكتب المصرية.
- عبد الحميد محمد (٢٠٠٠). البحث العلمي في الدراسات الإعلامية، بيروت، عالم الكتب.
- عبد العال، حسن إبراهيم (١٩٨٨). أصول البحث العلمي وآدابه عند الإمام النووي، الرياض، رسالة الخليج العربي، العدد (٢٤) ، السنة الثالثة.

- عبد العال، صفا محمود (٢٠٠٣). التعليم العلمي والتكنولوجي في إسرائيل، القاهرة، الدار المصرية اللبنانية.
- عبد الله، عبد العزيز (١٩٨٠). الفكر العلمي ومنهجية البحث عند علماء المغرب، مجلة الدارة، العدد (٣)، السنة الخامسة.
- العش، يوسف (١٩٤٥). الخطيب البغدادي، دمشق: دار الكتب العلمية.
- علمي، عبد الرحيم (٢٠٠٠) أدب الرحلة الصوفية في الغرب الإسلامي، مجلة دعوة الحق، السنة (٤١) ، العدد (٣٥٠): ٥٥- ٦٧.
- علوي، عبد العزيز (٢٠٠٠). الرحلة العلمية من إمبراطورية مالي إلى فاس في العصر المرين، مجلة دعوة الحق، السنة (٤١)، العدد (٣٥٠): ٦٨- ٧٧.
- العمري، عبد الله فالح (١٩٩٧). دور الرحلة في تنشيط الحركة العلمية مع التركيز على القرن الخامس الهجري، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة اليرموك ، إربد، الأردن.
- العمري، محمد (١٩٩٤) فن التراجم عند المحدثين، مجلة أبحاث اليرموك، سلسلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد (١٠) ، العدد (٢): ١١- ٤٥.
- عناية، غازي حسين (١٩٩٠). مناهج البحث العلمي في الإسلام، بيروت، دار الجيل.
- غانم، محمد (٢٠٠٠). تكامل البحث العلمي في الجامعات العربية وأثره على التنمية الصناعية العربية، مجلة اتحاد الجامعات العربية، العدد (٣٧).
- الغزالي، محمد بن حامد (٢٠٠٥). إحياء علوم الدين، المجلد الأول، الطبعة الرابعة، بيروت، دار الكتب العلمية.

- الفاروقي، إسماعيل (١٩٨٤). أسـلمة المعرفة، المبادئ العامة وخفية العميل (ترجمة: زهية عبد الوارث سـعيد)، المعهد العالي للفكر الإسـلامي، الكويت، دار البحوث العلمية.
- قاسم، عون الشريف (١٩٩٣). المنهج العلمي عند المسلمين، الخرطوم، مجلة أبحاث الإيمان، السنة الأولى (١) ، العدد (٢).
- القصبي، رشاد (٢٠٠٣). استثمار وتسويق البحث العلمي في الجامعة، مستقبل التربية العربية المجلد (٩)، العدد (٢٨).
- كابلر، أرنو (١٩٩٦). حقائق عن ألمانيا (ترجمة: سـامي شمعون، ومحمد كيبيو)، فرانكفورت، سويتس فرلانج.
- محمود، يوسف (٢٠٠٠). سيسيولوجية العلم والتكنولوجيا، عمان، دار وائل للطباعة والنشر.
- مرسى، محمد عبد العليم (١٩٨٤). حتى يكون هناك شيئا من الإنصاف لعضو هيئة التدريس في جامعاتنا العربية، الرياض، رسالة الخليج العربي ، العدد (١٨).
- مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري، صحيح مسلم، الكتب الستة، دار الدعوة، إستانبول، تركيا.
- المنذري، عبد العظيم بن عبد القوي (١٩٦٨). الترغيب والترهيب من الحديث الشريف، أربعة أجزاء، الجزء الأول، بيروت، دار إحياء التراث العربي.
- المهندس، أحمد عبد القادر (١٩٨٦). جهود المسـلمين العرب في مجال علم المعادن، الرياض، رسالة الخليج العربي، العدد (٢٠)، السنة السابعة.
- يعقوب، مصطفى (١٩٩٠). سبق العلماء العرب في اكتشاف المنهج التجريبي، مجلة التربية، العدد ٤ (١١٤).